

إِثْنَا عَشَرَ رَجُلًا

يُوسُفُ السَّيِّعِي

النَّاسِر
مَكْتَبَةُ مَصْرَ
٣ شَارِعِ كَامِلِ صَدُوقِي - الْبَحْجَالَة

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

الإهداء

إلى نابغة الشرق وعبقري الجيل :

الأستاذ توفيق الحكيم

أهدى كتابي هذا ...

وأنا الذي أهدى أقل بهارة
حسنا لأحسن روضة مثنّاف

« يوسف السباعي »

★ الإهداء بلا مقابل ، ليطمئن قلب الكاتب الكبير ، ويقبل الإهداء .

مقدمة

كثيرا ما أسائل نفسي وأنا أتأمل ابنتى «بيسا» ماذا ستقول عن أبيها عندما تبلغ سن النضج وتقرأ هذه القصص الملأى بالحب .. وكيف أستطيع أنا ، كاتب ، أن أردعها أو أزجرها أو أنهاها عن حب تساق اليه اذا كانت ثلاثة أرباع قصصى تتلخص فى أن « كل شيء ما خلا الحب عبث » .

هذه ولا شك مشكلة عويصة ، فما أظن أننى أستطيع أن أنكر ذلك الرونق الذى أضففته على الحب فى كتبى ، فمن العسير على الانسان أن ينكر ماضيه .. وخاصة اذا شهدت عليه كتب مطبوعة . حقيقة أن كثيرا من الساسة تعودوا مثل هذا الانكار ولكنى لم أصل بعد من الصفاقة الى مرتبة هؤلاء الساسة .. فتلك موهبة لا يهبها الله الا للساسة من عباده .. وعلى ذلك فلا اظننى الا مقرا بكل ما كتبت ، معترفا بكل ما قلت من أن الحب لا خيرة فيه بل هو من الأشياء التى يساق اليها الانسان اضطرارا ، وأن المرء ليصاب به كما يصاب بمرض من الأمراض ، وأن القلوب عمياء .. ما خلق الله فى الانسان أكثر منها حمقا وخرقا .. تندفع فى الحب بلا روية ولا تفكير .. ما استطاع امرؤ قط أن يسيطر عليها أو يتحكم فيها

أجل لا أظننى أستطيع أن أنكر كل هذا الذى كتبتة أو أنسبه الى
انسان آخر ، أو أدعى أنى لم أكن بكامل قواى العقلية وأنا أكتب
ما كتبت عن الحب .. ولكن يبدو لى أننى قد أجد لى خلاصاً
بالمحاورة والمداورة ، ويخيل الى أن هذا الحديث الذى دار بينى وبين
احدى بطلات قصصى قد يدور بينى وبين ابنتى فى يوم من الأيام اذا
ما حاولت أن أنكر عليها حيا لا أقره كأب .. حبا أجد فيه ، وأنا
الرجل العاقل الحصيف الذى سأكونه وقتذاك ، نوعا من الطيش
والنزق واندفاع الشباب .. حبا أخشى ألا يهيبء لها أسباب الهناء
والسعادة التى أتمناها لها فى مستقبل حياتها .

ويخيل الى أنها ستقول لى :

– حتى أنت ؟ أنت الذى تضع الحب فى كتابتك فى المرتبة الأولى
من مراتب الحياة .. تنكر على حبى ؟ !!

فأطرق ، ثم أجيبها فى تودة :

– يا بنيتى العزيزة ... أنا أقول ذلك فى الكتابة فقط ، فنحن
تحاول بالكتابة أن نهيبء لأنفسنا ناحية من الارضاء نفتقددها فى
الحياة ، نجدها قد انهارت وتطايرت كدخان فى الهواء .. فحبك هذا
قد يصلح لأن يكون موضوعا لقصة ناجحة .. أما أن نجعل منه
حقيقة واقعة نفرضها على حياتنا ، فلا شك أننا سنصاب منه بحسرة
وندم .. اننا لكى ننجح فى الكتابة يجب أن نحكم قلوبنا ، ولكن لكى
نتجح فى الحياة يجب أن نحكم عقولنا .

وبالطبع لن تسمع لنصيحتى .. بل من يدرى قد تذكرنى بقولى :
« اياك ونصح العشاق .. ان فى أذانهم صمما لا يسمح بدخول
النصيحة أو هو يسمح بها ثم يطردها من الأذن الأخرى » .

ان كل ما أملكه نحوك يا بنيتى .. هو أن أدعو الله أن يوفقك الى

الزوج الصالح الذى يهيب لك حياة راضية .. تلك هى خير ما يمكن
أن يتمناه انسان لامرأة .

انى أنكر ما قالته أمك ذات مرة من أنها لا تتمنى لك أكثر من أن
تتزوجى انسانا مثلى .

ولقد اعتبرت قولها خير ما نلته فى حياتى من مديح وثناء ، وقد
أكون لا أستحق شيئا منه ، وقد تكون مخدوعة فى .. وقد أكون لديها
« كالكعكة فى يد اليتيم » .. ولكن ماذا تهمنى ما دامت ترانى خير
الرجال .. وما دامت راضية عنى الرضا الذى يجعلها تتمنى لك
.. وأنت أعز من لديها – انسانا مثلى .

لست أدري ما الذى جعلنى أشغل بك مقدمة كتابى .. ولكنها
كلمة قد تسرك فى زمن ما .. عندما تبلغين مبلغ الأنوثة .. وتقبلين
على قراءة هذا الكتاب الذى حوى بين ضفتيه اثنى عشر رجلا من
مختلف أنواع الرجال ، فتعجمين أعوادهم ، وتقلبينهم بين كفيك
وتستعرضينهم الواحد تلو الآخر .. ثم تدرسينهم دراسة جيدة ..
وتعرفين الكثير عن أنواع الرجال .. دون أن يصيبك شيء من
شُرورهم .

هذا الكتاب يا بنيتى .. نور بلا حر .. وشهد بلا ابر .

« يوسف السباعى »

رجل وظلال

كثيرا ما سألت نفسي .. هل تقاس قيمة الناس حسب مراكزهم
التي يشغلونها فى الحياة ؟ وهل نستطيع أن نقدر مواهبهم وكفاياتهم
وأفضالهم .. بمقدار ما يبلغونه فى دنياهم ؟

وهل يحق لنا أن نقول ان فلانا قد وصل الى أكبر المناصب ..
لأنه قد وهب من الصفات والمزايا ما ميا له أن يسبق سواه ويتقدم
غيزه ؟

أو ان فلانا ما زال موظفا ضئيلا لأنه قد حرم كل ما يدفعه الى
السبق أو يهيىء له التقدم .

سمعت صاحبيا يؤنب خادما له قد أخطأ فى أداء عمل كلفه ايراد
قائلا :

- أيها الغبى .. ماذا أقول لك .. وماذا أتوقع منك أكثر من هذا
الغباء ؟ .. لو كنت أكثر نكاء لما بقيت حتى الآن خادما .. ولكنك
خيبرا مما أنت فيه .

هل صدق صاحبى فى قوله ؟ وهل خادمه ما زال خادما ولم
يصبح رئيس وزراء مثلا ؟ لأنه لا يتمتع بقدر من النكاء كالذى يتمتع

به رئيس وزراء ؟ وهل الفارق بين نكاهيهما كالفارق بين مركزيهما ؟
لا أظن .. أو على الأصح قد يكون .. فقد يبقى البعض فى بؤر
الحياة ، لا يستطيعون الصعود .. لأن غيابهم وضيق عقلم
يثقلاتهم ويشداتهم الى أسفل . فيقضون حياتهم فى زوايا الخمول ..
، لكن البعض قد تضمهم أيضا زوايا الخمول .. لا لغياب أو ضيق
عقل ولا لخلو من الأفضال والمزايا ، بل لأسباب لا دخل لهم فيها ،
ولا صلة لهم بها .. أو على الأصح ، لغير أسباب سوى أنهم لم
تسبح لهم سائحة حظ ، أو لم تلح لهم بارقة أمل .

ولست أشك أن خير مثل .. لهذا النوع الأخير الملقى فى زوايا
الخمول ، بلا نذب ولا سبب ، هو بطل قصتنا هذه : عم شحاتة
الكفراوى .

وزوايا الخمول بالنسبة اليه لا تزيد على حجرة متواضعة بأسفل
منزل فى حى المنيرة .. يقضى فيها ، أو على بابها ، ليله ونهاره ،
راضيا مقتبطا .

وكم من مرة شرد بى الذهن فأخذت أضع عم شحاتة هذا فى شتى
المواضع ومختلف المناصب ، فأراه مرة قائدا يضع الخطط ، ويدير
المعارك ويقود الجنود .. ولا أجد فى ذلك أية غضاضة أو غرابة بل
أجد من مهابته وشجاعته ما يكفل كل نصر ونجاح ، وأراه مرة
أخرى زعيما يخطب الجماهير ، أو سياسيا يحرك الأحزاب ويسيطر
على الأذهان . فلا أستغربه فى أية صورة بل أجده أفضل كثيرا ممن
أتيحت لهم الفرصة فوصلوا الى ما لم يصل اليه .

وقد يكون ذلك التصور منى ليس الا مبالغة .
أو قد يكون الدافع له هو حبه للرجل وفرط اعجابى به .. أو قد
يكون مجرد سخف .. أو جنون .. من يدرى ؟
ولكن لم لا أزيح نفسى وأصف لكم الرجل ؟

فى شارع المنيرة ٠٠ فى بيت من البيوت القديمة ، لا يزيد على
طابق واحد - سلامك - متسع الحجرات ، رحب الشرفات ٠٠ كانت
تقوم فى حديقته الضيقة حجرة صغيرة - منظره - تطل نافذتها
الحديدية على الشارع ، ويفتح بابها الخشبي الملون الزجاج فى
الحديقة .

وفى داخل الحجرة كان يبدو عم شحاتة راكعا على سجادة
الصلاة بجلبابه ٠٠ وعباءته الفضفاضة ٠٠ وطاقيته الصوفية ٠٠
وتسمع صوته الهامس يختم الصلاة بـ « السلام عليكم ورحمة الله ،
السلام عليكم ورحمة الله » .

ولست أريد بهذا الوصف أن أدخل فى روعكم ٠٠ أن الرجل من
النوع الورع التقى ٠٠ الورع الى حد البله ٠٠ التقى الى حد
السخف ٠٠ النوع الذى لا يرى الا وعلى شفثيه تمتمة وأصابه
تعبت بحبات المسبحة ٠٠ النوع الذى تطالعك من جبينه زبيبة صلاة
سوداء لكثرة السجود ٠٠ النوع الذى يضيع عمره فى شكر الله ٠٠
دون أن يحاول أن ينال ما يستدعى رضا الله ٠٠ أو يتمتع بما أعطاه
الله .

هذا النوع الذى يستغفر الله بكرة وأصيلا فى كل لحظة وأونة ٠٠
بسبب وبلا سبب .

هذا النوع لا يزيد على أن يكون انسانا سليبا وجوده كعدمه .

ليس الرجل قطعا من ذلك النوع .

فقد كان رجلا نكيا ٠٠ وأظن ذلك هو خير ما يوصف به .

وأنا أحترم الرجل النكى ، وأعتقد أن خير ما يهبه الله للانسان

هو الذكاء .

ويكفى أن يكون الانسان نكيا ليكون كل شيء ٠٠ فالذكاء يبعث

الانسان على أن يكون انسانا فاضلا .

والذكى لا يرتكب الاثم ولا يلقي بنفسه فى حماة الرذيلة .
والذكى لا يحرم نفسه متع الحياة ، ولا يقبل عليها بنهم يحمله
على الندم .

أجل ! الذكى لا يفعل أبدا ما يدعو الى الاعتذار ، أو الاستغفار . .
كان الرجل ورعا تقيا . . ولكنه كان ذكيا . . فكان ورع الجواهر ،
تقى الباطن . . لا يكثر من مظاهر ورعه وتقواه .
وكان يعطى ما للناس للناس وما لله لله .

وكان ينتهى من تأدية فريضة الله ليقبل على ديوان لابن الرومى
أو لأبى العلاء . . فيترنم بشعره ، ويعيد علينا بعض ما يستمتع
ويستظرف .

فإذا سمع أغنية جميلة أو موسيقى حلوة طرب لها وانتشى .
وكثيرا ما كنا نسمعه يدندن لنفسه بصوت هادىء جميل .
ولست أظن أن الرجل ، رغم كل ما ذكرت من صفات ، كان يمكن
أن ينال من اعجابى ما نال . . لو لم يكن على ما هو عليه من مرح
وخفة روح .

فأنا لا أحترم – بعد الرجل الذكى – الا الرجل المرح الخفيف
الروح .

ولا أظن أن هناك فارقا بين الرجل الذكى والرجل المرح .
فالذكى لا بد أن يكون مرحا ، والمرح لا بد أن يكون ذكيا . وليس
أدل على الغباء من التزمت وتصنع الوقار وادعاء الهيبة .
كان عم شحاته مثلا لانسان حاضر البديهة . . سريع النكتة ،
وما أظننى قد ضحكت قط كما ضحكت فى مجلسه ، ولم يكن من النوع
الذى يضحك على حساب غيره . . أو الذى يلقي النكات فيضحك
البعض ويؤلم البعض الآخر ، أو كان مثلا يستضعف انسانا فيجعله
موضع نكاته .

بل كانت نكاته وفكاهاته .. خالصة لا تشويها شائبة .. ولا يتأذى منها انسان .

• بل تضحك كل انسان .

ثم هو بعد ذلك .. أقدر الناس على فهم الناس .. وعلى التفاهم معهم ، وأقدرهم على ارضائهم مهما اختلفت عقلياتهم وتشعبت ميولهم .. وتباينت أهوائهم .. وهو كذلك أقدر الناس على نصح الناس وارشادهم دون أن يحرجهم أو ينال منهم .

فتراه يشترك معى فى احاديث عن الحب وفى استملاح هذه أو تلك . ثم يسوق النصح الى ، أو على الأصح يتسلل به الى فى خلال حديثه ، فلا يصدمنى به ، بل يزجيه الى هينا لينا .. مقبولا .
• مستساغا .

وكان الرجل كريم النفس .. سمحا أيبا .. يزخر قلبه بالحنان .. وتفويض نفسه بالعطف .. يحس بالام الغير كأنها الامه .
• ولا يستريح حتى يزيلها ، أو يشترك معه فى حملها .
• ترى هل أسرفت فى مدح الرجل ؛ أبدا والله .
• لقد كان الرجل - بعد كل ما قلته - خيرا مما قلت .
• لقد كان انسانا يحب .

• أو كان رجلا .. فى زمن أفقر من الرجال .
ولكن ماذا كان الرجل يفعل .. بعد كل ما خلعت عليه من صفات الرسل وفضائل الأنبياء ؟
ماذا كان يفعل ؟ !
لست أدرى !

لقد عرفت عنه شيئا كثيرا ، ولكنى مع ذلك لم أدر ماذا كان يفعل ، وماذا كانت صلته بأهل الدار .
• بواب ؟ !

لا أظن .. فلقد كان مظهره ومعاملتهم له توحى بأنه أرقى من ذلك .

قريب لهم ؟

لا أظن أيضا ، فتصرفه معهم واحترامه لهم لا يوحي بذلك .
ولو أنه كان قريبا لهم ، فلم لم يأت معهم الى داخل الدار ؟
ثم أكثر من هذا وذاك :

ما الذى يجيره على أن يقطن فى الحجرة الصغيرة بلا عمل سوى مراقبة الدار وتأدية الخدمات التى يطلبها منه أهلها ؟
لم لا يخوض غمار الحياة ، وهو الماهر الذكى ؟ . لم يقبع فى حجرته قانعا راضيا ؟ .
ولكن من كان أهل الدار ؟ .

كان رب الدار عالما من كبار العلماء .. وشيخا وقورا معمما
من رجال الأزهر .. ذا منصب محترم ، ومكانة عالية ، تبدو عليه
مظاهر الطيبة والهدوء .. سمح الوجه ، من النوع الذى وصفناه
فى بادئ الأمر بأنه ورع ، تقى ، فقط . النوع الذى حذرتهم أن
يظنوا عم شحاته منه ، بتسيبته وتمتمته ، دائم الوضوء ، دائم
الركوع والسجود ، يقبل الناس يديه ، ويرجون دعواته ، وبركاته ،
ويجدون فيه مثلا للصلاح ، والطيبة .. وهو الى جانب هذا يتمتع
بين أقرانه بسمعه طيبة فله مؤلفات فى الفقه والدين واللغة ، تشهد
له بسعة الاطلاع .

ويقطن الرجل فى داره مع زوجته وولده وابنته .. أما الزوجة
فإنها امرأة بين الكهولة والشباب .. لم تستطع السنون الأربعون
التي مرت بها أن تخفى شيئا من جمالها الهادئ الساكن .. فبدا
وجهها حلوا التقاطيع .. جذاب الملامح .. وان كانت قد انتابتها
سمنة وترهل شأن كل سيدات البيوت المصريات بعد الحمل والولادة .

أما الابن والابنة ، فكانا مثلا لجمال الخلق والخلق وما اظنهما
عستطيعين الا يكونا كذلك ، وأبوهما وأمهما قد جمعا جمال المظهر
وجهاً الجوهر .

ترى ماذا كان موضع عم شحاته من هذه الأسرة الطيبة الهادئة
الأمنة ؟

لو أن الرجل أكبر سنا مما هو الآن .. لقلت عنه : جد للأبناء ..
وآب للأم أو للآب .

فهو شديد الحب للأربعة .. جم العناية بهم ، لا هم له الا ان
يهيئ لهم أسباب الراحة والهناء ، ويوفر لهم دواعى المرح
والسرور .. اذا مرض أحدهم فهو الساهر الذى لا ينام ، واذا
أصاب واحدا مكروه فهو الباكي المتوجع ، واذا حدث بين الرجل
وامراته أى نزاع مما لا يخلو منه بيت فهو المصلح الموفق ، واذا
أقبلوا على معضلة فهو الناصح الأمين .

واذا احتاج أحدهم لشيء . فهو قاضى الحاجات الذى لا يشكو
ولا يمل .

وكانت دارنا تقع أمام الدار المذكورة .. ولم تكن تجمع بيننا
وبين أهلها صلات روابط الجيرة فحسب .. بل كنا أشبه بأهل
وأقرباء .

فكان أبى صديقا لرب الدار وكنت أعتبر ابنته وابنه أخوى .

أما والدتانا فكانتا لا تكادان تقترقان .

وكثيرا ما كانت تجمعنا الليالى فى مجالس أنس وسرور ، فيفيض
علينا عم شحاته بفكاهته ومرحه ، ويشيع فى جو المجلس بشرا ،
وحيورا .

وظللنا واياهم على هذه الحال .. من المودة والألفة .. حتى
فرقتنا الظروف .

فقد نقل أبى من القاهرة ، فاضطررنا الى الرحيل معه ، وأخذنا
نبتادل الرسائل والزيارات المتباعدة فى الأعياد والمناسبات ، حتى
سمعنا ذات يوم نبأ وفاة السيدة •

وروعنا النبأ •• وأصابنا حزن شديد •• وما أنكر أنى رأيت
والدتى تبكى بمثل تلك الحرقه التى بكت بها السيدة ، والواقع أنها
كانت امرأة نمونجية •• فى كل شىء •• وكانت حقا تستحق البكاء
•• ومرت بنا الأيام وخفف بعد الشقة وقله المزار مما بيننا وبين
الأسرة الصديقة من روابط وصلات • وشغلتنا عنهم شئون الحياة
وشجونها •• فما عدنا نذكرهم الا لئلا ، حتى انتقلنا مرة أخرى
الى القاهرة •• وقادتنى قدمائى ذات مرة لزيارتهم ، فقد كنت أحس
بشوق الى عم شحاته والى مجلسه اللطيف •

ووقفت أمام باب الحديقة الحديدى ، ودفعته بيدي ، ودلفت الى
الداخل ، واتجهت حسب عادتى الى حجرة عم شحاته على يسار
الداخل وطرقت بابها طرقا خفيفا •

ولم يجب أحد •• فظننت الرجل يصلى ، وانتظرت برهة ، ثم
أعدت الطرق ، ولكنى لم أسمع صوتا •• وضغطت مقبض الباب
ودفعته أمامى ، فاذا بالحجرة خالية لا من الرجل فقط بل من مقاعدها
وأرائكها وصناديقها وكراكيبيها ، واذا بى لا أجد أمامى سوى أرض
مجردة وجدران عارية •

وأغلقت الباب واتجهت الى باب الدار ، وقد شرد ذهنى وانتابنى
خوف وحزن •• وساءلت نفسى : أين الرجل ؟ تراه قد مات هو الآخر ؟
ووجدت باب الدار غير محكم الخلق ، فدلفت الى القاعة وبحثت
فى جوانبها فلم أجد مخلوقا •• وصفقت بيدي تصفيقا خفيفا حتى
يجيبنى من فى الدار ، فلم يرد على أحد •• وكنت واثقا انه لا بد
أن يكون هناك انسان فى الدار •• على الأقل واحد من الخدم ،

وخاصة بعد أن وصل الى مسمعى .. صوت انسان يتحرك فى
المطبخ .

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحا ، رغم أن الشمس لم
يبد لها أثر فى السماء ، فقد كان اليوم من أيام الشتاء التى تغلب
فيه الشمس على أمرها .. وتحجب وراء ستار من السحب الثقيلة
المعتمة .. ولم يكن خلو الدار من أهلها بمثير دهشتى .. فقد كنت
أتوقع أن يكون الأب والابن قد ذهبا الى أعمالهما وأن تكون الابنة
قد ذهبت الى مدرستها .. ولكن الذى أذهشنى هو ألا أجد لم
شحاته أثرا فى الدار ، وأن أجد حجرته خاوية على عروشها !

وتقدمت مترددا حتى وصلت الى المطبخ ووقفت ببابه فبدأ لى
منظر طريف ما كنت أتوقعه قط .

وجدت عم شحاته وقد انحنى على منضدة المطبخ .. وأمسك
بيمناه ابرة وأبور ، وبيساره ورقة مشتعلة ، وانهمك بكليته فى
تسليك وأبور الجاز .

ووقفت أرقبه وهو يضع سن الابرة فى ثقب الموقد ثم يرفع السن
فيندفع الدخان بشدة من الموقد ويمد يسراه بالورقة المشتعلة فاذا
بالموقد يتأجج ويتوهج ، وتندفع منه النيران قوية شديدة .

ووقف عم شحاته يرقب الموقد وهو يديلك يديه فرحا .. ثم نظر
الى الموقد ، وهز رأسه ، وقال يخاطب الموقد فى شيء من الشماتة :
— جنس كلب .. لا يجدى معك غير الوخز والشك !

ولم أستطع أن أكتم ضحكى فاندفعت مقهقها .. والتفت الى
الرجل مذعورا ، فلما تبيننى أقبل على يعانقنى فى شوق شديد ويقول
مرحبا :

— أهلا .. أهلا بالذى يظهر فجأة من باطن الأرض ..

– الذئب ننبك فقد تركت الباب مفتوحا على مصراعيه ولو سطا على الدار لص ، لسرق الدار وأنت لا تدري .

– الذئب ننب الخادم . . . فقد أرسلته بيتاع لى حزمة يقدونس فلم يغلّق الباب خلفه . . . ما علينا . . . رينا يستر . . . كيف حالك ؟ . . .
وحال الوالد والوالدة ؟ لقد طالّت غيبتكم حتى ظننا انكم نسيتمونا .
– نحن تنساكم ؟ . . . ننسى عم شحاتة ؟ حاشبا لله .

وصمت برهة كان الرجل يضع فى خلالها احدى الحلل الملائى بالماء فوق الموقد ، فأردفت متسائلا :

– ولكن لم هجرت حجرتك . . . حجرتك العتيدة ؟ . . . لقد رأيتها خرابا بلقما !

– نقلت الى داخل الدار ، بعد وفاة المرحومة ، فهم فى حاجة الى ، وان كنت لا أظن أننى أستطيع أن اعوضهم عن قلامة ظفرها ، ولكننى أحاول ، وهذا كل ما أمك .

وبدت لى فى صوته رنة اسى يحاول الرجل عبثا أن يخفيها ، فقلت له :

– رحمها الله وأسكنها جناته .

وهز الرجل رأسه ببطء وقال :

– لا شك الا أنه فاعل . . . فمن غيرها أحق بالرحمة ؟ ولن سواها جعلت الجنان ؟

ومد الرجل يده فأمسك بمقعد فى ركن المطبخ دفعه الى قائلا :

– هل لديك مانع من أن تجلس معى هنا ، حتى أنتهى من مهمة المطبخ ! ؟

– مانع ؟ هل نسييتى ؟ ! . . . مات بعض هذا البطاطس أعاونك فى تقشيره .

ودفعت الكرسي جانبا ، واقتربت من المنضدة . . . وامسكت بسكين ، وبدأت فى تقشير البطاطس الملقى على المنضدة .
وامسك الرجل بالطماطم ، واخذ فى وضعها فى المصفاة ثم بدأ مهمة العصر قائلًا :

– اياك أن تجور على البطاطس . . . خفف القشرة قدر المستطاع
– من علمك البخل يا عم شحاتة ؟ . . . لقد كنت رجلا كريما .
– الكرم شيء والعمل شيء آخر . . . لو كان هناك من سياكل القشر
لما نصحتك بأن تجعله رقيقا . . . ما الفائدة فى الاسراف اذا لم يكن
هناك من ينتفع باسرافك ؟ . . . واذا كان الاسراف سيذهب مع الريح ؟
– حكمة جديدة . . . ستتوارثها الأجيال القادمة : عم شحاتة ،
وقشر البطاطس . . .

وانتهى الرجل من تصفية الطماطم ، ورايته يغسل اللحم ثم طلب منى معاونته فى تقطيعه .

وامسكت اللحم أمامه ، واخذ هو يقطعه بالسكين . . . ونظرت الى وجهه فبدأ لى أن السنين الأخيرة قد اثقلت كامله ، وانهكت قواه ،
وانها قد دفعتة الى الهرم بخطوات حثيثات مرع ، فاطقات بريق عينية ، وحنث ظهره . . . وقلت له متضاخكا :

– هرمت فجأة يا عم شحاتة ! .

– لقد كنت فى صراع مع الزمن .

– ومن كسب ؟

– انا . . .

– لا اظن ! . . .

– ولم ؟

– هذا الهزال ، وهذا الوهن .

– اثار بسيطة للمعركة . . . خدوش ورضوض . . . لا اقل منها !!

– وماذا أصاب الزمن ؟ •

– هزيمة منكورة : ارتد عنى وعنهم •• ألا ترانى سليما معافى ؟ !
ألا ترانى أظهو وأتحدث ؟ لقد صدمت فى بادئ الأمر ، صدمنا
جميعا ، ولم نكن نفعل الا البكاء ونقول مع الحكيم الذى سألوه
– لم تحزن مع علمك بأن الحزن لا ينفع ؟ – كفى حزنا أن الحزن
لا ينفع ، ولكنى كنت أول من تجلد ، ووقفت على قدمى وكلت للزمن
الضربة تلو الضربة •• فتركت حجرتى ودخلت الدار ونزعت عنها
السواد ، وحاولت جهدى أن أبعد سحب الحزن المعتمة التى حطت
بها ، وضحكت وقلبي باك موجه •• وأخذت بيد الأولاد والرجل •
وحاولت جهدى أن أحل محل الراحلة الجميلة الكريمة ، ولا أظننى
الا قد أرضيتها فى قبرها •• كما أرضيتها فى حياتها •

وصمت الرجل وأنعمت النظر فى وجهه الأسمر الذى ملأته
التجاعيد •• وقد علاه وجوم وتجهم ، وكأنما أثارت الذكرى كامن
شجنه وهاجع جزئه ، ووجدت السؤال القديم قد قفز الى نهنى
فجأة •• السؤال الذى أعيتنى الاجابة عنه : من كان الرجل ••
وما صلته بالأسرة ؟ •• وماذا يضطره الى أن يفعل من أجلهم ما فعل ؟ •
أكل هذا نظير المسكن والمأكل ؟ •• لا أظن •• فلو أنه قد وجه جهده
فى أية ناحية من نواحي الحياة لكان خيرا مما هو الآن ألف مرة
ولأصاب ثراء ومكانة ، بل لأضحى خيرا من صاحب الدار نفسه •
ماذا يجبره على تلك القناعة ، وعلى أن يشد نفسه الى الأسرة
كأنه جواد شد الى عرية ؟ ماذا يجبره على أن يعمل للرجل ولبننيه
خادما •• وعلى أن يحاول أن يعوضهم عن السيدة الراحلة خير
عوض ؟

وأحس الرجل أتى أمعن فيه النظر ، قرفع الى عينيه • ولم أشك
فى نظراته أنه قد قرأ ما جال بخاطرى فقد قال فى تودة ويطء :

– سل عما يحيرك • سل يا بنى • سل ذلك السؤال الذى اعيتك اجابته •• من أنا •• ومن القانى فى هذا الجحر اقضى فيه عمرى ! من شدنى الى هؤلاء القوم اقنى من اجلهم حياتى واقتبس من سعادتهم سعادتى ومن هنائهم هنائى •• سلنى يا بنى •• فى حاجة الى الاجابة •• بى حاجة الى الاقاضة •• سلنى واتحلى فرصة الحديث ، فقد أجد فيه شيئاً من المتعة والعزاء •

وأدهشنى قول الرجل •• وخيل الى أنه يغلط صدره على أمر مرير وحزن دفين ولوعة مكبوتة • ومددت يدي وربت على كتفه وهمست اليه :

– تجلد ، لآتجعل الزمن يشمت بك بعد أن صرعته •

وتضاحك الرجل ، ثم أسقط اللحم فى القدر الموضوعة على النار ، وجذبني من يدي فأجلسنى على المقعد وسألنى :

– أأصنع لك قدحا من القهوة ؟ •

– لا ضرورة لذلك • أنا لست غريباً • هل نسيت أننى من أهل الدار ؟

وساد الصمت بيننا برهة كان الرجل يعطى فى خلالها – نفساً – للموقد •• ثم أخذ يتشاغل بتنظيف المنضدة •

وقلت له أستحثه على الحديث :

– تكلم يا عم شحاته ، ام ترى لا بد لى أن أسألك حتى تجيب ؟

أجب عن ذلك السؤال الذى طالما حيرنى •• قص على قصتك •

– هى قصة قديمة •• تبدأ بمحسوبك وهو طالب فى الأزهر ، أو على حد قولهم – مجاور – غلبان ، لا يملك من جطام الدنيا سوى كاكولة ، وعمامة ، وتعل ، بلغ من العمر أرنبه •• وما زال يرجو له طول البقاء ، وصندوق خشبى ، حوى بعض الهلامي وخرچ

حلاّن بالبتاو الجاف • وهو المرتب نصف السنوى الذى يرسله لى
الأهل من البلد •

وكان يشاركنى مسكنى وقتذاك - وهو عبارة عن حجرة فى سطح
منزل بالدراسة - زميل وخل وفى ، تعاهدنا فيما بيننا على أن نتقاسم
السراء والضراء •• أو على الأصح الضراء والضراء ، فما أظن
زمننا قد كرم معنا فوهب لنا السراء مرة واحدة •

كنا نتقاسم البتاو الجاف والجبن القريش • كنا نتقاسم الحصير
تحتنا ، والغطاء الرث فوقنا • كنا نتقاسم نجوم السماء وسهر
الليالى •• كنا نتقاسم الشاى الأسود وأفية ابن مالك ، وأخيرا
كنا نتقاسم صياح الصبية يعدون خلقنا فى الطرق والحوارى :
« يا مجاور ، عمك دابت ، م السلطه والفول الثابت » •

كل هذا تقاسمناه ، وما أظنه من السراء فى قليل ولا كثير ، ومع
ذلك فقد كانت نفسانا تفيضان غبطة ورضا •• وروحانا ترتعان فى
سعة وبحبوحة ، سقى الله الشباب يا بنى ، الشباب والأمل المنشود ،
فقد كان أصل الرضا ومبعث الغبطة •

كنت أضحك من كل شيء ، ومن لا شيء • وكنت أحس كأن نفسى
تتوثب وقلبى يتحفز •• كنت أرجو وأمل ، وكنت أنتظر شيئا جميلا ،
ولا شيء يمتع الانسان كانتظار المتعة ، فانتظار المتعة أجمل من المتعة
نفسها . وتوقع النعيم الذ من الاستغراق فيه •

كنت نفسا مرهفة وقلبا حساسا وروحا - كما يقولون - خاما
تتوقع متعة مجهولة ، تجسدها لها ضحكة ناعمة تسمع فى سكون
الليل ، أو صوتا جميلا يسمع من وراء نافذة مغلقة •

كنت خالى القلب ، ومع ذلك فما أظن القلب كان فى شغل فى أية
فترة من فترات العمر كما كان فى ذلك الوقت • كان القلب أشبه
بانسان يستعد لعرس ، فهو دائم اليقظة ، دائم اللهفة ، دائم الشوق

والحنين ٠٠ الى من ؟ ٠

لا يدري ٠

فهو ما زال ينتظر ويتمنى ٠

كنت أعشق النجوم والسماء والنسيم والطيور ٠٠ كنت أنظم
القصيد في الغزل والتشبيب ، وكنت دائم الترنم والشدو ٠٠ وكنت
مفرقا نفسي في متعة حب ٠٠ بلا حبيب أو بحبيب لم يظهر في أفق
الحياة بعد ٠٠ حبيب قد ينم عنه عطر عابر ، أو جسد ملتف في ملاءة
سوداء ، أو ثغر باسم خلف البرقع ٠٠ حبيب انعكست صورته في
القلب قبل أن تبصره العين ٠

وأخيرا يا بني بدا الحبيب ٠٠ الذي لا يمكن أن يكون هناك حبيب
سواه ٠٠ والذي طاللت لهفة القلب عليه ، وحنين الفؤاد اليه ٠٠٠
الحبيب الذي كنت أتمنى وانتظر ٠

كان أول ما عرفت منها ضحكة بعثتها مع النسيم في هدوء
الليل ٠٠ ضحكة أنطلقت من فيها فاستقرت في قلبي ٠٠ وتردد
صداها في صدري فملأتنى نشوة واقعمتني طريا ٠ ومرت بي الليالي
وأنا أعيش على الضحكة ٠٠ أميزها من بين ألف ضحكة ، وأعرف
منها صاحببتها اذا حملها الى النسيم . كما قال الشاعر :

هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برياك
ورأيتها بعد تلك ، بدمها ولحمها ، وفتنتها وسحرها ، تماما كما
كنت أتوقع أن أراها ، وكما كانت تنعكس صورتها في قلبي
كانت تقطن في دار مجاورة ، ورأيتها وقد خرجت من الدار
متشحة بالحبرة وقد تلالأت عيناها خلف البرقع الأبيض ، وكنت
أسير مع صاحبي فأصابني ارتباك جعلني أتعثر في الكاكولة وأكاد
أرقمى على وجهي ٠

وضحكت ٠٠ ضحكت على طبعها ، ووصلت الى مسامعي

ضحكتها .. وكانت فى هذه المرة وجها لوجه . فأصابتنى اصابة مباشرة ، لم أفق منها الا وقد اختفت صاحبتنا عن عيني وسط زحام الشارع .

وبدأت بعد ذلك أشاهدهما وراء نافذة المشربية فى كل ذهاب لنا واياب ، وأخذت آمال القلب تتحقق شيئا فشيئا عندما أدرك أن صاحبه قد بدأ ينتظر أوبته وروحته .

وأنت تعلم يا بنى قدرة الشباب على تشييد قصور الأمانى وبراعته فى أن يجسم لنفسه الآمال والأحلام ؛ وهكذا لم تمض بضعة أسابيع ، حتى فزت من صاحبى بابتسامة وسلام .

هل جريت الحب ؟ .. هل ذقت انتصار الحب ؟ . هل تعرف ما معنى أن يبتسم لك الحبيب ويشعرك أنه ميزك من دون خلق الله أجمعين .. ؟ هل تعرف كم تساوى تلك الابتسامة بالذات ؟

ابتسامة .. أى انفراج شفقتين ، قد يمنحها صاحبها طول اليوم لمئات الناس فلا تعنى شيئا بالنسبة لهم .. ثم يمنحك اياها .. فتكون لك كل شيء : تكون النعيم .. وتكون الحياة .. ويكون انفراج الشفقتين بالنسبة لك كأنه انفراج أبواب الجنة .

ومرت الأيام .. وأنا مغرق نفسى فى خضم من السعادة ، لا أكاد أبصر شيئا حولى .. سوى متع براءة خلاية .

ولقيتها ذات مرة .. وحدثتها .. فزدت بها وجدا وولها .. ووجدت فى نفسها رقة وعذوبة .. وكان اللقاء خلسة فى جوف الليل للحظات خاطفة .. مرت كأنها البرق .

وبدأت أرسم فى ذهنى مستقبلا حافلا ، وجعلت أشحد من همتى .. وصممت على أن أكون امرأ ذا شأن .

ووضعت لنفسى الخطة التى توصلنى الى أسمى المناصب والتى
تنتهى بى الى أن أكون « شيخ الجامع الأزهر » .
كل هذا من أجلها . . ولم أكن أحس وقتذاك أنه أمل بعيد على ،
أو شيء كثير عليها ، لقد أعطانى حبها قوة دافعة كانت تهبى لى
فعل المعجزات .

★ ★ ★

وصمت عم شحاته ، ووجدته يمد يده الى الرف فيأخذ من فوقه
« بصلتين » ينهمك فى تقشيرهما وتخريطهما ، ثم سألنى قائلاً :
- هل تضايقت رائحة البصل ؟

وساءنى أن يهبط الرجل فجأة من ذروة الحب الى حضيض
البصل ، وتمنيت لو غادرنا المطبخ ليكمل لى القصة فى جو خال من
الماديات التافهة : بصل ، وجزاز ، وطماطم ، الى جو شاعرى يلائم
حديثه .

ولكنى خشيت أن أضايقه ، فقررت أن أحتمل البقاء ، وأن أغض
الطرف عما يزعم شاعريتى من لوازم المطبخ .
وانتظرت أن يعاود الرجل تتمة القصة ، ولكنى وجدته قد بدأ
يبدن كأنما قد انتهت القصة ، واستطعت أن أميز من دندنته :
« ما كانش كده طبعك يا غزال » ، وأصابنى منه غيظ شديد ، وقلت
أستحثه على تتمة القصة :

- عم شحاته . . هل يمكنك أن ترجى عتابك للفزل بعض الشيء
حتى تتم قصتك . لقد قلت ان حبك أعطاك قوة دافعة تهبى لك فعل
المعجزات .

- وأى معجزات ! .

- هل أضحيت شيخا للجامع الأزهر ؟

- وهل هذه معجزة ؟

المعجزة هي انى اصبحت ما انا عليه ، فلا اظن وصولى للمنصب
كان شيئاً كثيراً على .

قلت لك اننى انهمكت فى الدرس والتحصيل وفى وضع الخطط
للوصول الى قمة المجد حتى لقيتها مرة ثانية . وكان اللقاء لمدة
اطول ، مدة هيات لنا تجانب أطراف الحديث ، وتمنيت بعد اللقاء ..
لو لم يحدث اللقاء أبدا .

فقد حطم أملى .. ونهبت معى أحلامى هشيما تنروه للرياح ،
وتركنى فى ظلمة اليمه وحلقة معتمه .

ماذا حدث ؟

لا شيء ..

لا شيء أكثر من أن صاحبتى أقبلت على فى حرارة واخلاص ،
وحدثتني كما تحدث أخلص الأوفياء وأصدق الأصدقاء .. وأخبرتني
أنها تحس اطمئنانا الى وثقة بي ، وأنها لم تجد انسانا يمكن أن
تركن اليه سواى .

ثم انبأتنى أنها تحب صاحبى !

- صاحبك !! صاحبك من ؟

- صاحبى الذى يسكن معى .. والذى قلت لك عنه اننا كنا
نتقاسم الضراء معا .. فلما حلت بنا السراء .. كانت السراء من
نصيبه .. ما علينا !

لقد أقت الفتاة قولها الى ببساطة واخلاص وطمأنينة كما تلقيه
الى أمها أو الى صديقة لها !

وأحسبت بقلبي يدمى ، وبقيت مدة طولة شارد الذهن ، محمقاً
فى الظلمة ، لا أكاد أعى مما تقوله شيئاً ، حتى نيهتني الفتاة ..
واقترقنا بعد برهة .. وبعد أن سألتني أن أبلغ تحيتها الى صاحبى .
ولم أتم ليلتها .. بل رقدت خارج الحجرة أحملق فى السماء

حتى مطلع الفجر .. ثم تسللت بنفسى خارج الدار أضرب فى
الطرقات على غير مدى .

وساءلت نفسى فى مرارة : لم هذا الخلط من القدر ؟ ما ضره
لو جعل الفتاة تحبنى أنا الذى لا أبصر فى حياتى سواها ، والذى
أجد فيها بارقة تهدينى سواء السبيل ؟ !

ما الحكمة فى أن يجعلها تحب صاحبى الذى لا يكاد يحس بها ؟
بما تراه يفضلنى .. وكلانا يكاد يكون نسخة ثانية من الآخر ؟ !
وتملكتنى ثورة عنيفة .. على كل شيء .. على الحياة ، وعلى
الناس .. وعلى القدر .. وأحسست بايمانى يتبدد .

وعدت فى نهاية اليوم محطم القوى ، مهدم الأعصاب . وأقبل
على صاحبى يسألنى عما بى ، وأين كنت طول اليوم قلم أجيبه .
وهل أستطيع أن أقول له ما بى ؟ !

ومرت الأيام ، فبدأت ثائرتى تهناً ، ولكن حبى لم يهدأ . على
النقيض . لقد زاده الاحساس بالحرمان ، والشعور بالخيبة تأججا ،
وانتهى بى التفكير الى أمر عجيب .

لقد أقنعت نفسى بأن من العبث أن أحاول الكف عن حب الفتاة
فلقد تشعب حبها فى قلبى بحيث أضحى من العسير اقتلاعه الا اذا
إقتلع القلب نفسه ، ولقد منحنتنى الفتاة ثقته وصادقتها ، واطمأنت
الى ، وأفضت الى بدخيلة قلبها . لم لا أعتبر هذا نوعا من الظفر ؟ ..
لم لا أكرس نفسى لسعادتها وأحاول أن أحقق لها أمانها ؟

اذا كنت أحبها حقا .. ولم يتح لى القدر أن أكون أنا نفسى سبب
سعادتها .. فلم لا أعاونها أنا على الظفر بالسعادة !

لم لا أكون عوناً لها على الحياة ؟

لم لا أهب لها نفسى ؟

أم لا بد لذلك من أن تهب لى نفسها ؟

لم لا أحاول أن أتمس سعادتي عن طريق سعادتها .. وهنائى
عن طريق هنائها ! ؟

وهكذا أقنعت نفسى يا بنى • وبتلك الطريقة فقط استطعت أن
أضمد جراح قلبى • وأن أهيبء له ظلالا تقيسه حرقه الطريق ،
ووحشة السفر •

وأنبأت صاحبى بأن الفتاة تحبه ، وظللت به حتى أقنعت به حبها ،
وكانت هذه أول خطوة لى فى طريقى الجديد •

وهكذا بدأت أسير فى الحياة بأمل واحد ، هو اسعادها • أتذكر
ما قلته لك من أننى بدأت أنهمك فى الدراسة ، وأرسم الخطط لى
أصل الى أسمى المناصب ، حتى أهب لها زوجا تستحقه ؟

أتذكر ما قلته لك من أن حبها أعطانى قوة دافعة تهيبء لى صنع
المعجزات ؟

لقد كانت القوة ما زالت بى ، وما زالت بى أيضا الرغبة فى أن
أهيبء لها زوجا تستحقه ، ولكنى لم أجد هناك ما يلزم لأن أرسم
الخطط لنفسى • فبدأت أرسم الخطط له • وبدأت أستحثه على
الدراسة والتحصيل • وصممت على أن أفنى فيه ، وأن أجعل منه
لها شيئا مذكورا • حتى أهب لها الزوج الصالح الذى تستحقه •
ولقد صنعت المعجزات يا بنى •

ما رأيك فيه الآن ؟

من ؟

– صاحب الدار !

– أهو نفسه صاحبك ؟

وهز عم شحاتة رأسه • بالايجاب ، وعدت أسأل :

– وهى ؟

– أجل ، هى نفسها الراحلة الكريمة •

وساد الصمت بيننا برهة ، ثم عاود الرجل حديثه :

– لقد صنعت المعجزات يا بنى ٠٠ لقد كان من السهل على أن
أجعل من نفسى شيئا مذكورا ٠٠ أما منه فقد كان الأمر يتطلب شيئا
من الجهد ٠ لقد دفعته أمامى ، أو قل جررته كما يجبر الحمار العرية ٠
ألفت له الكتب ودفعت به الى أرفع المناصب ، وصنعت من أجله ،
أو قل من أجلها كل شيء ، حتى صار الى ما هو عليه ، وجعلت كل
همى فى الحياة رعايتها ورعايته من أجلها ٠

وأنزل عم شحاته القدر عن الموقد ، ووضع طاسة التقلية وأخذ
فى قدح السم ٠

وأخذت أفكر فى هذا الرجل العجيب ٠٠ وأسأل نفسى : هل يمكن
أن تكون فى دنيانا أشياء كهذه التى قصها على ؟

وكئنا أدرك الرجل ما جال بذهنى ٠٠ فالتقت الى قائلا :

– لا تظن يا بنى أتى فعلت شيئا كثيرا ٠٠ بل لا تظننى فعلت شيئا
ألبتة ٠٠ فليس فى فعلى أى نوع من أنواع التضحية ، وثق عندما
أقول هذا أنى لا أقصد به التواضع أو انكار الذات ٠٠ فكل ما فعلته
هو أتى أسعدت نفسى بطريقة لم يعتدها الناس ٠٠ أو أنتى حاولت
أن أسلك طريقا الى السعادة ٠٠ فلما وجدته مغلقا سلكت طريقا
مجاورا انتهى بى الى نفسى ما كان سينتهى اليه الطريق الأول ٠٠
أو على الأصح ٠٠ الى خير منه ٠

ماذا فعلت يا بنى ؟

لقد عشت مع من أحببت طول عمري ٠٠ لقد هيات لقلبي ظلالا
تحميه من وهج الحياة ٠

ماذا يضيرنى اذا كان سواى قد حمل عنى المظلة التى منحتنى
الظلال ؟ ماذا يضيرنى ٠٠ اننا تشاركنا فى الظلال سويا ! ؟

ماذا كان يمكن أن أناله من السعادة أكثر مما نلت ؟
هل كان ينقصني سوى تلك اللذة الجنسية التافهة السريعة
الزوال ؟

لقد عشت معها في دار واحدة فما فارقتها قط . وكنت أحس أن
أولادها أولادى .

ولقد منحتها كل ما استطعت من سعادة وهناء .
هل ترانى فعلت شيئاً كثيراً ؟ .. هل ترى فى فعلى أى نوع من
انواع التضحية ؟

وفكرت لحظة ثم أجيبته ببطء :

- ليس أكثر من تضحية كل جندى مجهول .
- أبدا يا بنى ! حتى هذا لا أوافقك عليه .. لقد كان ذلك هو
ما أحس به حتى أشرفت على الموت ، فأنبأتنى أنها تعرف كل شيء ،
وأنها تحس أنها مديونة لى بكل شيء ، وأن ما فعلته أكثر من أن
تستطيع رده .. ولا حتى بالحب .. ثم سألتنى أن أعتنى بالأولاد
وبالرجل . وأنبأتنى أنها ستتظرنى فى السماء .. لنبدأ معا أمرا
جديدا .. ثم ذهبت وخلفت بقولها ظللا أخرى .. تحمى القلب من
حرقه الفرقة .

رجل عاقل

سيدي العزيز :

أية سخريه من سخريات القدر تلك التي تدفعني الى الكتابة اليك .. أنا الذي ما رأيت في حياتي مخلوقا أشد منك تفاهة ، ولو كان بيدي الأمر لصرفتك عن الكتابة الى مهنة أخرى ، اشفاقا عليك ورعاية لمصلحتك .

حب !! .. تصور أن مهنتك يا سيدي كاتب حب !! وأن مهنتك في الحياة حض الناس على العشق .. أنك لا شك انسان تافه .. ليس لرجل مثلي عاقل محترم من رجال المال والأعمال فسحة للتفكير في تلك التفاهة التي تنشرها على الناس فان من العيب أن نصرف أذهاننا الى ذلك الحمق الذي تسميه حبا ، وأن نجعل منه شيئا يسيطر على مشاعرنا . صدقتي فانتى أضحك كثيرا من أولئك المجانين – وأنت واحد منهم – الذين يؤمنون بأن « الحياة الحب ، والحب الحياة ، » .

وحاشاي يا سيدي أن ازعم أن استخفافي لك ناتج عن قراءة

شيء مما تكتب فما حاولت ذلك قط ٠٠ لأنى أحس فى نفسى أننى أرفع من أن أنزل الى قراءة تلك الأقايصى ٠٠ وأعقل من أن أجعل من سخافتك حتى مجرد وسيلة للتسلية بله التثقيف والفائدة ، وكان يجب ، والأمر كذلك ، ألا أعرف عنك شيئاً ، وألا أحس. نحوك بشيء كأي مخلوق لا صلة لى به ، ومع ذلك فقد عرفتك ٠٠ عرفتك عن طريق ابنى الطالب بالجامعة ، أو على الأصح ، الطالب فى مدرسة قصصك ، فقد كان يقبل عليها بشوق ولهفة ٠٠ ويقرؤها مثنى وثلاث ورباع ، ويحاول أن يشيد بك أمامى وأن يظهره فى صورة العباقرة الفنانين ، فكنت أهز رأسى فى صمت ، وكنت أتمنى لو كان أكثر تعقلاً وإدراكاً لحقائق الأمور ٠٠ كنت أتمنى لو كان مثلى رجل عمل ، فيقبل على دروسه ويسيعها كما يسيع سخافاتك ، ولكنى مع ذلك لم أكن معه جامد العقل ، فلم أحاول زجره ، وكنت أقول لنفسى أنه ما زال صبياً ، فاذا ما بلغ مبلغ الرجال فسيكون أكثر رزانة ، وينظر الى الحياة ويفهمها كما أنظر اليها وأفهمها .

وهكذا يا سيدى رأيتك من خلال ابنى ٠٠ ولم أشك وقتئذ أن قراءك - ان كان لك قراء - كلهم من هذا النوع المرفه الحس ، المصطخب الشاعر ، ولم أجد ضرراً فى أن يكون ابنى أحدهم ، وأن يمر بهذا الدور الذى يمر به كل انسان ، دور التلف فى الحب والسكر بنشوة الهوى .

أجل يا سيدى ! ٠٠ لم أجد فى شغف الصبى بأقايصك عجباً ٠٠ بل لم أجد فى اندماجه ببعض وقائع الحب سوءاً ولا حرجاً ، فقد كنت أرى أن أعامله معاملة رجل لرجل ، وكنت أرى أن تلك الشيء الذى يسمونه « الحب » إنما هو شيء طبيعى فى مثل هذه السن ، ولهذا لم أحاول أن أضيق عليه الخناق بطريقة تدعوه للتذمر أو التبرم ، بل كنت أسوق له النصح كما ينصح الصديق صديقه .

وفى ذات يوم • بدا لى الفتى واجما شاردا على غير طبيعته ، ولم ألق الى الأمر كثير اهتمام •• وقلت لنفسي : انه ضيق طارىء سرعان ما يزول ، ولكن مضى يوم ويومان وهو مستمر فى صنعته وحزنه ، لا يتحدث الى أحد ، فاذا ما سئل بدا كمن هب فجأة من نوم طال استغراقه فيه ، ورأيته يعاف الطعام حتى انه لا يكاد يأكل ما يقيم أوده •

واذا علمت ، يا سيدى ، أن هذا الابن هو كل أملى فى الحياة ، وأن أمه ماتت وهو فى طفولته • فجعلت له من نفسى بعد موتها أما وأبا ، وأنه ما كان يؤلنى فى الحياة شىء كالم يصيبه أو مرض يلم به •

اذا علمت هذا ، واذا كان لك ابن تحبه ، فلا شك أنك تستطيع أن تدرك مدى ما تركت حالته هذه من دعر فى نفسى وضيق بين جوانحى •

وحاولت أن أتبين منه سبب ما به •• فما أجابنى بأكثر من « لا شىء » •

وحاولت أن أسرى عنه ، وأن أبعده عن جو الكتب والدراسة ، وأن أتهدب معه فى بعض نزوات ، كنت أعرف أنه مشغوف بها ، ولكن كل هذا لم يخفف من وجومه واطراقه •

وساءلت نفسى : أيمكن أن يكون ما به أثر حب وصدمة عشق ؟ • لقد قلت لك اننى شديد السخرية بمثل هذا التفكير ، ولذا أحسست بضيق شديد وكرهت أن يكون ابنى من هذا النوع العاجز الواهن ، القصير التفكير ، الضعيف الادراك •

وكان من العيب أن أقف هكذا وأنتظر ، وكان لا بد لى أن أفعل شىئا •• فجلست اليه ذات مرة • وأخذت أتبسط معه فى الحديث وأمتدح له عبقريتك ، وأقص عليه وقائع غرام وقعت لى فى صباى

واقول له كما يقول المجانين : ان الحياة الحب .. والحب الحياة ..
فرايت الفتى ينصت الى وقد بدت عليه السكونة والهدوء ، واحس
نحوى بالطمأنينة وبدأ يكشف عن خبيثة صوره ، ويفضى بدخيلة
نفسه .

لقد قص على قصة حبه بالتفصيل ، ولست انوى ان اصدع بها
راسك فهي قصة كل عاشق .

لقد علمت منه انه يحب فتاة تقطن في الدار المجاورة ، وانكر انى
رايتها بضع مرات قيل ان يحدثنى عنها ، وكنت اعرف انها تكبره
على الأقل بسبع سنوات او ثمان ، ولذا لم اجد غرابة عندما انبأتى
في حديثه ان مصدر لوعته هو انها تهمله اهمالا تاما .. بل لا تكاد
تحس له وجودا . فقد كنت ارى ذلك امرا طبيعيا ... فأغلب ظنى
انها وهى فتاة فى السابعة والعشرين او الثامنة والعشرين ، لم تكن
لتبصر فيه أكثر من صبى يلهو ، ولم يكن ليخطر لها على بال ، وهى
التي تتوقع خطبة وزواجا من رجل محترم ، ان تشتبك مع مثله فى
عبث اطفال .

وحاولت طبعاً ان اسوق له النصح - كوسيلة ابتدائية - فقلت كل
ما يمكن ان يقال فى مثل ذلك المجال .. قلت له انها اكبر منه ، وانها
لا تستحق ان يندفع فى حبها مثل ذلك الاندفاع .. قلت له ان الامتحان
قد قرب ، وان دروسه اولى بالتفاتة ، وان امامه المستقبل زاه وزاهر ،
وانه يجب ان يكون رجلا فيكف عن ذلك التخاذل . قلت له كثيرا من
هذا القبيل .. فكنت فى نصحى كالنافخ فى رماد او الصارخ فى
واد ، وادركت انه لم يفهم من نصحى كلمة واحدة . فقد شرد عنى
بذهنه مذ بدأت النصح .

وتركته بضعة ايام ... عل النصح يهديه فيهدى ... او لعل
الله يهيم له من امره رشدا ، ولكن الايام لم تزده الا سوءا .. حتى

علمت أنه انقطع عن الذهاب الى كليته ، وأنه يقضى يومه شاردة بين الحداثق والحقول ٠٠ أو بين الصحارى والرمال ٠٠ فلا يعود الى الدار الا وهو متهوك القوى ، محطم الأعصاب ، وهو الذى لم ينقطع عن دراسته يوما واحدا ، والذى لم يرسب قط فى امتحان أداه ، بل كان الأول دائما ٠٠ تصور يا سيدى حالى وأنا أراه كذلك ثم اقف امامه مكتوف اليدين لا أملك له شيئا ؟ !

ومع ذلك فقد كان على أن أفعل شيئا ٠٠ انه ابنى يا سيدى ٠٠ انه كل ما لى ٠٠ انه فلذة كبدى ٠٠ انه أنا ! ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ أنا كما قلت لك رجل رزين محترم ، يعتبر جنون الحب خرافة ، ويرى « قيسيا » وغيره من مجانين العشاق اوهاما من خيال الشعراء ، ولكن هاأنذا أرى ابنى قد صار احدهم ، بل شرا منهم . فكيف أنقذه ؟ الأخطبها له ؟ ولكن كيف أزوج طفلا مثله ، وأحملة أعباء لا طاقة له بها فيصبح وله زوجة واولاد ٠٠ ثم يتبخر الحب بعد بضعة أشهر ، ويبقى العباء طول العمر ٠٠ فيلعتنى مدى الحياة ؟

ثم ماذا يغيرها هى بقبول زواج من صبى مثله ، وهى فى تمام وعيها وعقلها ؟

ماذا أفعل معه ؟ ٠٠ أرحل به بعيدا حتى ينسى حبه ؟ ٠٠ ولكن هل يقبل هو ذلك ؟ ٠٠ لا أظن ! ٠٠

وخيل الى أن هناك طريقا واحدا يمكن أن يؤدى الى شيء ، طريقا لو قيل لى أن أحدا قد سلكه ، لقلت انه لا شك مجنون ، ولكنى تحت هذه الظروف لم أتردد فى أن أسلكه فقد كنت اتلطف على بارقة أمل . كان هذا الطريق هو أن أذهب بنفسى الى الفتاة ، وأقص عليها القصة ، وأخبرها بما وصلت اليه حالة الصبى ، وأطلب منها أن تتولى هى علاجه ، وتقريه بعض الشيء ٠٠ حتى يخف ما به ، ويعود الى نفسه والى دروسه . ولعل الزمن بعد ذلك أن يبرئه ، أو لعله أن

ينصرف الى أخرى تشغله عنها • من يدري ؟ على أية حال فأى شيء
خير بلا شك مما هو فيه •

وذهبت الى دارها - دون أن أخبره طبعاً - واستقبلتني هي
فأنبأتها أنى فلان الذى يقطن بجوارهم فرحبت بى وأجابت أنها
أسفة لأن أباهما غير موجود •• فقلت انى أريدها هي •• فبدأ عليها
شئ من الدهش ، ولكنها أجابت بأدب أنها على استعداد لأية خدمة •
وقصصت عليها القصة ، وحاولت جهدى أن أوضحها لها من
الناحية التى أبصرها بها •• وشرحت لها بما تستطيع هي أن تؤديه
لى من جميل لن أنساه مدى الحياة ، وبدت على الفتاة دهشة
شديدة •• لم أستنكرها أنا منها ، فقد كنت أعلم أن المسألة برمتها
مسألة عجيبة ، رأيتها تطرق وتستغرق فى صمت عميق ، فأخذت
أرقبها بنظرة فاحصة حتى أتبين تلك المخلوقة التى أحدثت بابنى حالة
جنون •

•• أجل •• لقد أخذت أتمعن فيها وهى مطرقة صامتة •

والى هنا ، ولتسمح لى أن أتمهل ، وأتمهل ، فمن هنا تبدأ قصتى
الحقيقية ، ومن هنا كان يجب أن تبدأ رسالتى •• لقد قلت لك انى
قد سبق لى رؤية الفتاة بضع مرات ، ولكنها كانت كلها سريعة عابرة
لا تسمح لى بتمييزها • أما فى هذه المرة فقد أبصرتها جيداً •

أتعرف يا سيدى تلك النوع من النساء الذى لا يبهرك منه بريق
ولا ضياء ؟ تلك النوع الذى يمتاز بجمال هادئ ساكن يحس به
القلب قبل أن تتبينه العين •• والذى يرداد احساسك بفتنته كلما
طالت نظرتك اليه ، والذى يتناسب تأثيره فى النفس تناسباً مطرداً
مع طول الجلوس اليه والحديث معه ، هل فهمت ما أقصد ؟ انا
لا أجد فن الوصف ، ولكن يخيل لى مع ذلك أنك لا شك قد أدركت

ما اعنى ، ذلك النوع الدقيق الرقيق الذى يفيض عليك عنوية كأنه
نبع يتدفق من الجنة ، أو كأنه نور القمر فى ليل هادىء ساج •
وأخذت أتأملها فى صمتها ، وتفكيرها ، وأنا أحس بكثير قلق
حتى رفعت الى رأسها وقالت فى صوت هادىء :
- انى أفهم يا سيدى كل ما قلت ، وأدرك المسألة تمام الادراك ،
وانى على استعداد لأن أقبل كل ما طلبته منى •• اذا كنت ترى فى
ذلك انقاذا لوليدك •

وأحسست بالتضاؤل أمام الفتاة •• كما يحس الانسان بالتضاؤل
أمام الآلهة •• فقد نزل على ردها بردا وسلاما ، كيف لا وأنا الذى
لو طردتني من دارها واتهمتنى بالجنون لما وجدت فى فعلها عجبا ••
أليس مجنوننا ذلك الذى يطرق دار جيرانه ليسأل ابنتهم أن تقولى
علاج ابنه « التلميذ » وتعيده الى دروسه وتنقذه من حبها ؟ !

ولكن الفتاة كانت ذكية لبقة •• ففهمتنى ولم تسخر منى ، وكانت
كريمة شجاعة ، فلم تتردد فى أن تقدم على مساعدتى دون أن تجد
فى ذلك حرجا •• أترى الانسان يصادف فى حياته كثيرا من هذا
النوع ؟ •• لا أظن •• فانها مخلوقة نادرة !! •

ومرت بضعة أيام لم أدر ماذا حدث خلالها ، ولكنى أحسست فى
نهايتها بمعجزة تحدث •• لقد رأيت ابنى يعود الى نفسه ، بل الى
أكثر من نفسه •• رأيتة يفيض بالأمل ، ويمتلئ بالحياة ، ويندفع
فى دراسته ، ليعوض ما فاتته بهمة مشحونة وإيمان قوى •
لقد أنقذته الفتاة من كل ما به !!

ولست أدرى ما فعلت ، ولست أدرى كذلك أية نهاية يمكن أن
ينتهى اليها ، ولكن الذى أدرية أن قلبى كان يفيض بالشكر •• وأنتى
قد ملأتنى رغبة قوية لأن ألقاها لأزجى اليها امتنانى واعترافى
بجميل صنعها •

وقعلا لقيتها !!

لقيتها مرة ٠٠ وثانية ٠٠ وثالثة ٠٠ وفى كل مرة انتحل لنفسي
عذرا ٠ ووجدت نفسي مضطرا الى التعرف بأبيها حتى يكون اللقاء
مستساغا ٠

لقد لقيتها مرة لأشكرها ، وانتهى الشكر ٠٠ لم حاولت انن أن
القاها ثانية وثالثة ، ولم كانت بنفسى لهفة على لقائها فى كل حين ؟
اضحك يا سيدى ٠٠ اضحك ملء شديك ٠٠ اضحك من الرجل
العاقل الرزين الذى كان يراك تافها ، فلقد أضحى أكثر منك تفاهة ٠٠
اضحك يا سيدى فقد كنت أنا هذه المرة لا ابنى ! ٠
أيمكن أن يكون هذا معقولا !! أنا الرجل الكهل المتزن الذى يظن
أن قد فهم الحياة على حقيقتها ٠٠ وانتهى من كل تلك السخافات التى
تسمى حيا ؟

كف عن الضحك يا سيدى فانى استحق الرثاء والبكاء ، أتعرف
ما كان عليه ولدى من الشرود والحزن واليأس ، لقد أصبحت على
أضعاف أضعافه ٠

كيف استطاعت التسلل الى قلبى الجامد المغلق ؟ لقد سلبتنى
صوابى ، وأصبحت شيخا عاشقا !

أجل ! لقد أضحييت أحمق ماقونا حتى لقد فكرت فى أن أتزوج
الفتاة ، واندفعت فى حبى محاولا أن أجتنب قلبها ولكن عبثا
حاولت ٠٠ فقد كان قلبها مشغولا !! أتدرى بمن ؟ بابنى ! أجل ٠٠
لقد انتهى الأمر بها الى حبه ! لقد دفعتهأ أنا الى ذلك الحب ٠٠
فجعلت من ولدى غريما لى ٠

ماذا أفعل يا سيدى ؟ لقد كتبت اليك لأنى أود أن أخرج من
صدرى بعض تلك الجمرات التى تتأجج فيه ٠٠ ولاسالك كيف أنقذ
نفسى ؟ اياك والنصح ٠٠ فأنت أدرى الناس بقيمته لدى العشاق ٠٠

اياك أن تقول لى اننى رجل كبير محترم رزين عاقل .. وان من العيب
أن أندفع فى حب لا قائدة فيه ولا طائل تحته ، وان من الحق أن
أنازع ابنى حبه .. اياك أن تقول لى ذلك .. فأنا أعلمه أكثر منك
ولقد قلته لى نفسى مئات المرات ، فلم يجد نفعا ، ولكن ماذا يستطيع
مخلوق مثلك أن يفعل لمخلوق مثلى ؟

ان الله وحده هو الذى يستطيع أن يفعل ، اللهم هينى من لى
رحمة .

المخلص

.....

★ ★ ★

ولقد وهب الله رحمة .. ورحمة الله للإنسان تكون بأحد أمرين :
أما أن يفقده روحه أو عقله .. فأسعد الناس اثنان : ميت ومجنون
وكانت رحمة الله لصاحبنا بالطريقة الثانية .. فلقد حاولت أن
أرد على خطابه فعلمت أنه جن !! يا له من رجل عاقل !!

رجل عبقرى

وضع العبقرى منظاره فوق عينيه وأخذ ينشر أمامه ورقة قد طويت فى يديه . . . وبدا عليه ارتباك شديد كأنه تلميذ يوشك أن يلقى قطعة من الملاحظات .

ومضت فترة قبل أن يسود المكان السكون عقب تلك العاصفة المدوية من التصفيق والهتاف ، وأخيرا هدا القوم ولم يعد يسمع فى أنحاء القاعة الرحبة الأرجاء الا همسات خافتة .

وانتظر فترة قبل أن يسود المكان السكون عقب تلك العاصفة المدوية من التصفيق والهتاف ، وأخيرا هدا القوم ولم يعد يسمع فى أنحاء القاعة الرحبة الأرجاء الا همسات خافتة .

وانتظر القوم أن يتكلم الرجل المحققى به والذي احتشدوا لتكريمه ، ونظر الرجل الى الورقة فى يده ، ومرت برهة وهو صامت لا يتكلم ، وأخيرا طوى الورقة مرة أخرى ثم رفع رأسه وخلع منظاره وبدا متوتر الأعصاب ، مرهق النفس ، كأنما ينوء بحمل لا قبل له به .

كنت أحس ما يعتمل فى نفسه اذ ذاك من المشاعر فقد كنت أدري الناس به . . . كنت أعرفه ، شديد الخجل ، جم الحياء ، لا يربكه شيء

قدر أن تواجهه بالاعجاب أو تلقى على مسامحة مديحا أو ثناء . .
فما بالك وقد وجد نفسه أسيرا في دار الأوبرا ، مجبرا على أن
ينصت الساعات الطويلة الى أحاديث المديح فيه ، وخطب الاعجاب
به وقصائد الاشادة بفضله ، وان كنت أشك كثيرا في أنه قد انصت
فعلا فهو أقدر الناس على السرحان في اثناء الخطب والمحاضرات .
ما بالك بالرجل الخجول وقد وجد نفسه مبعث هتاف وموضع
تصفيق من الجماهير الغفيرة التي احتشدت بها المقاعد والمقصورات،
حتى لقد ظن نفسه زعيما أو ممثلا !!

ما بالك وقد وقف بلحمه ودمه على مسرح الأوبرا ليرد على أقوال
العجبين والمدحيين . . حقيقة أنه قد حضر ما سوف يليق به ، وحقيقة
أنه حفظه وقراه على عدة مرات حتى حفظته أنا نفسي عن ظهر قلب ،
ولكنى مع ذلك أراه قد عاوده خجله وأصابه الارتباك ، وارتج عليه
قلم ينبس بينت شفة ، ونشر الورقة وطواها دون أن يقرأ منها حرفا .
وأخيرا فتح الله عليه ، ففتح فاه وبدأ الحديث ، ووصل الى
مسامحة صوته الأجش ، وقد أخذ يلقي كلماته ببطء وتؤدة . قال :
« أنا لا أجيد الحديث . . ولقد حاولت أن أكتب ما سوف أقول
حتى لا يبدو للناس عجزى ، ولست أكتفكم القول أنى أجهدت نفسي
فيما كتبت ووضعت فيه ما استطعت من تنميق وزركشة ثم أجهدت
نفسى في حفظه حتى لا أرتبك في القائه . . ومع كل ذلك فقد أصابنى
الارتباك لأننى وجدت ما كتبت زكيكا سخيفا اذا ما قورن بما أحس
به فعلا . . ان لكل انسان أمنيات في صباه ، وأمنيات الصبا لا يقتصد
فيها المرء ولا يتعقل بل يطلقها من أوهامه براقعة بلا حدود ولا قيود ،
ولقد تمنيت في صباى أن أكون كاتبا شهيرا وتخيلت نفسى رجلا ذائع
الصيت طائر الشهرة . . وبالغت في الخيالات وفي الأوهام ، ورغم
ذلك لم أستطع بأوهامى أن أصور لنفسى ما أحسن به الآن ولا أن

أضعها في الموضع الذي وضعتوني فيه .. أجل ما استطعت أن
أوهما أنني ساكرم حيا .. وأنى سيقال في ما قد قلتموه ، ولا
أخالني استحق شيئا مما حدث ومما قيل ، ولكن ما ذنبي وقد أجبرت
على قبوله وأغلب ظني أن مبعثه هر كرم في نفوسكم .. لا فضل
في .. ولا نبوغ مني !

ولا أظنكم بعد كل ما فعلتموه من أجلى ترفضون لي مطلباً أخيراً
وهو أن تعفوني - وأنتم الكرماء - من رد دينكم لأنه لا يرد ، فأنا
أضعف من أن أردّه ، وأعجز عن أن أخرج ما في قلبي على لساني ،
والسلام عليكم ، .

وترك الرجل المنصة متعثراً مضطرباً ، واندفع الناس في نوبة
جنونية من التصفيق والهتاف ونهضوا عن مقاعدهم متجهين نحو
الأبواب .. فقد انتهى الحفل .

وذهبت أبحث عن صاحبي .. الكاتب العبقري .. فوجدته بين
ال جماهير كأنه فأر غريق .. ولم يكذب بيصرتي حتى تقدم إلى وتعلق
بذراعي كأنه يتعلق بحزام النجاة ، وسألني أن أخرج به إلى الهواء
الطلق .

وكان صاحبي رغم عبقريته ككاتب ، ورغم كل ما أقيم له من
حفلات تكريم ، ورغم ما له من شهرة وتقدير ، ما زال في نظري
« الخم » خلق الله ! وكنت أرى فيه خير دليل على المثل العامي :
« يعطى الحلق للى بلا ودان »

فقد كان لا يعرف كيف يتمتع بشهرته وبمركزه ، وكم حاولت أن
ألقنه بعض دروس في العظمة أو التعاضل وأن أعلمه كيفيسير وكيف
يرد تحيات الناس ، وكيف يتصنع الثقل والكبرياء ، ولكنني كنت
كالنافخ في « قرية مقطوعة » فما أجدت الدروس نفعا ، وكم حاولت
أن أرغمه على تقليد « سيد أفندي » وهو أحد النكرات ، كان لا يقبل

علينا الا منتفخ الأوداج ، واضعا يده فى جيبيه ، ممسكا عصاه باليد الأخرى ، مطاولا برأسه الى السماء .. مصعرا خده ، وعليه سيماء من يشعر أن كل من حوله يتهامسون : هذا هو سيد أفندى الرجل الشهير .. ما قد أقبل سيد أفندى : ألم تروا سيد أفندى ؟

وكنت أحس بالرتاء لسيد أفندى ، لأن الأقدار خلطت بينه وبين صاحبي ، فقد حرمته الشهرة التى تتناسب مع تصرفاته ومظهره ، وأعطت صاحبه من الشهرة ما لا يتناسب قط مع تواضعه وانكاره لذاته . وكنت كثيرا ما أقول له (مشيرا الى سيد أفندى) : « تعلم كيف تسير .. تعلم كيف تنظر الى الناس ! » .

فجيبني فى دهشة : « أنت لا شك مجنون .. أتريدنى أن أسير هكذا .. كالديك الرومى ! .. أتريد أن تضحك الناس منى ؟ ! » .

واستمررت فى قولى محاولا اقناعه :

– عندما تسير أنت كالديك الرومى ، فلن يضحك عليك أحد ، لأنك يحق لك أن تسير كما تشاء ، وأن تفعل كما تشاء .. ولكن عندما يسير هذا الحمار النكرة كالديك الرومى .. لا يستحق الضحك فقط ، بل يستحق ضرب النعال ..

ومع ذلك لم يقتنع صاحبي .. بل استمر على مشيته – الغلبانة – .. وعلى خجله من الناس ، وقراره منهم ، وكلما ازدادت شهرته ازداد تواضعه وازداد حياؤه حتى بت اعتقد أن الرجل لا يعرف قدر نفسه .. وأن ما يصدر عنه من دلائل النبوغ وعلامات العبقريّة ليس سوى خبط عشواء .

لقد صارحته بذلك ذات مرة فلم يجبنى بأكثر من قول جوتيه شاعر الألمان « نحن لا شيء ، ولو صدقنا أنفسنا فوضعناها فى أماكنها لما بقى فى الدنيا غرور ولا كبر » .

وهكذا لم أستطع أن أبذل من صاحبي العبقري . ولا استطاعت

الشهرة أن تغريه بالكبرياء والتعظيم ، واستمر هو هو ، فى لخمته
وتواضعه ، حتى هذا اليوم الذى أجمع فيه القوم على تكريمه
ووضعه بين النجوم وعلى هامة السحب خرج يتأبط ذراعى وهـ
يتعثر فى أذياله ويكاد يذوب خجلا .

ودلفنا الى العربية ، ولم تكد تسير بنا العربية قليلا حتى أمر
السائق بالوقوف وأنبأنى أنه يرغب فى السير وسألنى ان كنت على
استعداد للسير معه ، فلم أمانع .

وصرفنا السائق وسرت واياه فى ميدان العتبة وتجاوزنا بناء
البريد . وكانت الساعة قد بلغت السابعة ، والميدان يعج بالمارة
ومركبات الترام كأنها خلايا النحل ، والعربات يزاحم بعضها بعضا
وآلات التنبيه لا تكف عن الصياح ، والباعة يتواثبون ويتصايحون ،
ويتكون من كل هذا خليط من أصوات تصدع الرءوس ، والجو قد
علقت به ذرات لست تدري أمن تراب أم من ضباب ، ذرات تتكسر
خلالها حدة الأضواء المتناثرة المتنافرة .

ووصلنا الى شارع عبد العزيز . . . وعبرنا قضبان الترام متجهين
الى شارع محمد على ، وسرنا على الاقريز العريض الذى تحده
الأعمدة الضخمة التى رصت على جوانبها شتى أنواع الكتب
والروايات .

وتوقفنا برهة نقلب الطرف فى الكتب المرصوفة هنا وهناك ،
ثم عاودنا سيرنا الهوينى . . . وبدا على صاحبى أنه يستعيد لنفسه
ذكريات حلوة غابرة ، وأنه يشعر من سيره بمتعة ، فقد علت وجهه
علامات السكينة والانشراح ، وسمعته يدندن بصوت خافت أغنية
قديمة هى « ياما انت واحشنى » وكنت أعرف أن هذه الأغنية هى
أبرز علامات انسجامه وسروره .

ووصل الى أذنى صوته يدندن فى خطوات : « كيد العوازل

كايبنى « ، عندما صاح صوت من جانب الطريق : « اتفضل يا أستاذ » ، ثم اندفع ألينا من إحدى المكتبات رجل بجلباب ومعطف وهجم على يد صاحبي فهزها هذا عنيفا مقسما أغلظ الأيمان أن نتفضل ، ورأينا أنفسنا أمام أحد أمرين : إما أن نطلق للريح سيقاننا ٠٠ أو نتفضل ٠٠ فتفضلنا ٠٠ وجلس الرجل يجذب أنفاسا من الشيشة ، وأخذت الشيشة تكرر وتتصاعد منها الفقاقيع ، وجرعنا فنجائين من الشاي الأسود ٠٠ ثم ودعنا الرجل وهو يقسم أغلظ الأيمان أن تعاود زيارته .

وعاودنا السير حتى وصلنا الى باب الخلق وصاحبي ما زال فى انشراحه ودندنته ، وان كان قد انتقل الى أغنية أخرى وأخذ يردد : « سباني سهام العين » ، وطال بنا السير دون أن أعرف وجهته ، أهو يقصد مكانا معنا ، أم هو يسير لجرد الرغبة فى السير ؟ ولم أرد أن أقطع نشوته بالسؤال ، وسرت الى جانبه أدندن أنا الآخر ٠٠ وقلت لنفسي : علام الخجل ، وأنا لا أفعل أكثر مما يفعله رجل ٠٠ كرمته البلد ٠٠ فى دار الأوبرا منذ دقائق معدودات ؟

ورأيت صاحبي يتجه فجأة الى اليمين ٠٠ ودخلنا فى شارع قادنا الى حى الحلمية ، وهنا لم أجد بدا من سؤاله : الى أين ؟ ولم يجبنى لأول وهلة ، بل مال بي الى حانوت لبيع عصير القصب ، ودفع بابيه الزجاجى ودلفنا الى الداخل ، وجلسنا على مقعدين بينهما منضدة نحاسية مستديرة وأقبل علينا صاحب الحانوت يحيى صاحبي فى لهفة وشوق . ورد عليه صاحبي تحيته بنفس اللهفة ونفس الشوق ٠٠ كأن بينهما قديم صحبة وسابق ود .

وجلست أتأمل الرجل بجلبابه الأبيض ، ولاسته التى لف بها رأسه وغطى أنفيه ، وقد أخذ يروح ويجيء فى المحل الضيق وقد بدت عليه فرحة شديدة ، وأخذت ألقاظ الترحيب تنساب من فمه :

– سلامات يا بيه ٠٠ والله زمان ٠٠ زارنا النبي ٠
ولم تكن فرحة صاحبي بجلسته فى الحانوت بأقل من فرحة الرجل
٠٠ فقد بدت عليه علامات البشر والأنس ٠٠ وأخذ يسأل الرجل عن
حاله وعن أولاده وامراته ٠

وأمسك الرجل بعيدان القصب يغسلها وينظفها بسكينه ثم يدفع
بها بين شقى العصاره فيسيل منها العصير أبيض كالحليب وينسكب
فى إبريق مغطى بشاشة نظيفة بيضاء تحجز ما قد يرسب فى الإبريق
من تفل وشوائب ٠

وقدم الينا الرجل كوبين مترعين بالعصير قد توجتهدا رغو
بيضاء ، وأخذ صاحبي يحتسى كوبه بلذة ونهم حتى أتى على ما فيه
فأقرغ له الرجل كوبا آخر ٠

وكان المحل يقوم على ناصية الشارع ٠٠ فهو يهيبء للجالسين
فى داخله مراقبة السيل الذى لا ينقطع من المارة ومشاهدة زبائن
محلات الحلوى والبقالة والفاكهة التى تقوم على جانبى الطريق ،
والتطلع الى عدد لا يستهان به من شرفات النوافذ والدور المقابلة ٠٠
وهكذا كان الحانوت أشبه بنقطة مراقبة ٠

ووضعت الكوب على المنضدة ، وقلت لصاحبي فى شىء من
التهكم :

– لو عرف مكرموك فى دار الأوبرا أين تقبع الآن ٠٠ لندموا على
تكريمهم إياك !

فرقع حاجبيه وقال فى لهجة مؤكدة :

– ولو خيرت أنا بين قضاء الساعات الطوال أسيرا فى دار
الأوبرا ، وبين بضع دقائق أقضيها فى احتساء كوب من عصير الحاج
محمود ٠٠ لفضلت العصير ٠٠ ما رأيك ؟

– جنون ٠٠ أو شنون ٠٠ أنا لا أنكر أن العصير من نوع جيد ٠٠

ولكنه لا يستحق تلك المشوار الذي قطعناه من أجله ٠٠ لا يستحق أن نحبس أنفاسنا مع الحاج محمود داخل تلك الحق المليء بالقصب ، ولم يجب صاحبي ، ورأيته يتطلع يبصره من الأبواب الزجاجية ، ويشرد بذهنه برهة ثم يسألني ببساطة :

– هل تعرف منزل الأنس ، الذي عناه الشاعر في قوله :
يا الله يا منزل الأنس الذي درست
آثاره وعفت منذ بنت أريعه

لقد كان لنا هنا منزل أنس ٠٠ بانت مبعث أنسه ٠٠ ورحلت عنه منبع حياته ٠٠ فدرست من بعدها آثاره ٠٠ وعفت أريعه ، اللهم الا أثرا واحدا بقي ينكرنا بها وبه ، هو هذا المحل الذي نجلس فيه الآن .

وأقول الحق انى دهشت من قول صاحبي ، وفوجئت من رنة الأسي التي به ٠٠ فما كنت أتوقع أن يكون له فى المكان واقعة غرام قديمة ٠٠ وما كنت أتوقع أيضا أن تكون كعبه غرامه التي يحج إليها ٠٠ هى دكان عصير قصب ، وأن يكون هذا الدكان هو كل ما تبقى من منزل الأنس الذي يتحدث عنه .
وسألته متضاحكا :

– هل أفهم من قولك أننا قد قطعنا كل تلك المسافة من الأوبرا الى الحلمية ٠٠ حتى تتمتع حضرتك بزعازيع الغرام ، ومصاصة الهوى الباقية من منزل الأنس الذى عفت آثاره ؟

– لا تكن « بايخا » ولا تحاول أن تهزل فى كل موضع .
– آسف ٠٠ ولكن هل تنوى أن تظل هكذا جالسا فى بقايا منزل الأنس ، أم قد آن لنا أن نعود أدرأجنا ؟
– قم بنا ٠٠ نمشى قليلا .

ونهنضنا ، ولم يقبل الرجل أن يأخذ منا مليما واحدا رغم الحاجتنا عليه ، وقال لصاحبي مؤنبا :

– عيب يا أستاذ ٠٠ دى معرفة العمر وعشرات السنين ٠٠
فضلك سابق وخيرك علينا ٠

وسرنا على الافريز بجوار المحلات ، وأشار صاحبي الى محل يقال
بجوار المحل الذى خرجنا منه ، قائلا :

– هذا المحل كان فيما مضى معمل طرشي ٠

وأشار الى محل بجواره لبيع الأدوات المدرسية وقال :

– أما هذا فكان مبيض نحاس وبجواره كان يوجد الأسطى سعيد.
العجلاتي ٠٠ وعلى الناصية كان يقف حسونه بائع الجوزية ، وعلى
الناصية الأخرى كانت تقف عربة غزل البنات ٠ أما هذه الدار
المجاورة فكانت مدرسة أولية تدعى « حسن المسرات » ٠٠ كل ذلك
قد أصابته يد التغيير والتبديل ٠٠ لا شيء قد بقى على حاله سوى
الحاج محمود بائع عصير القصب . ولكنى مع ذلك لا أكاد أجوب
المكان حتى ترتسم فى رأسى صورته القديمة ٠٠ فما استطاع الزمن
الذى محاها من الحقيقة أن يمحوها من الذهن ، أو قل ان الذهن
أكثر تعلقا بالصورة القديمة فهى تذكره بأيام حلوة وسنين خضر
يانعة ٠

أنا لا أبصر فى ذلك المنظر الذى تبصره شيئا ، ولكنى أبصر المنظر
القديم والصورة الغابرة ، أبصر بائع الجوزية وأبصر مبيض
النحاس الذى سود النحاس وجهه وقد وضع قدميه فى احدى الحلل ،
وارتكز بيديه على الحائط وانهمك فى تحريك نصفه الأسفل وهز
وسطه وعجزيه ٠٠ أبصر أمامى منزل الأنس عندما كان يشيع فيه
الأنس ٠٠ أبصره قبل أن تدرس منه الآثار ، وتعفى الأربع ٠٠ أبصره
منذ عشرين عاما وقد سرت بجواره كما أسير الآن ٠٠ وقد حملت.

تحت ابطى بعض ما كتبت .. وانتابنى شعور عزيز قوم اجبرته
الحاجة على مد يده للسؤال .

كنت اذ ذاك أحد النكرات ، وعندما أقول أحد النكرات .. لا أقصد
بذلك اننى أضحيت الآن خيرا مما كنت فأننا هو أنا .. ما تغيرت
وما تبدلت ، ولكن نظرة الجماهير الحمقى الى قد تغيرت ، وقيل لهم
ان هذا رجل عبقرى فرددوا القول كالبيغاوات وأقبلوا على كقطع
من الغنم يسيغون كل ما أكتب حتى ولو كان سخافة ، واذا ما كتبت
شيئا غير مفهوم ، اعتقدوا أنه أسمى من مداركهم وازدادوا اعجابا
به حتى لا يفهم سواهم أنهم لا يفهمون .

كنت وقتذاك أكتب لفسى .. فما كان هناك من يحس بى ، وكانت
الآمال تصطخب فى جوفى ، وكانت تدفعنى أحيانا الى أن أرسل
ما أكتب الى الصحف والمجلات .. ثم أقبل على شرائها بلهفة على
أرى فيها شيئا مما قد كتبت ، وتمر بى الأسابيع وأنا ما زلت أمل ،
حتى يصيبنى اليأس ، وأدرك أخيرا أن ما كتبت قد طوته سلة
المهمات .

وفى ذات يوم كتبت احدى القصص ، وأحسست من مجرد
كتابتها بنشوة ، وخيل الى أنها من خير ما كتبت ، وقرأتها على
صديق لى .. حتى أعرف رأيه فيها .. فقد كنت أدرك أنه ما من
انسان الا ويدفعه الغرور الى الزهو بما كتب .. وطلبت من صاحبي
أن يبدي رأيه فيها صراحة .

وانتهى صديقى من قراءتها ورأيت فى وجهه علامات التأثر واقسم
لى أنها من خير ما قرأ وأنى لو أرسلتها الى أية صحيفة أو مجلة فان
تتردد فى نشرها .

ولم أتبين فى صاحبي علامات مجاملة أو ريب ، فعزمت على أن
أرسلها الى احدى المجلات على أنما آخذ تجربة .

وسألنى صاحبي :

– كيف ترسل قصصك الى المجلات ؟

– بالبريد •

– لا • لا • خير لك أن تذهب بها بنفسك •• حتى لا يلقى بها

في سلة المهملات دون أن تقرأ •

– ولكنى لا أعرف أحدا هناك •

– لا ضرورة لمعرفة أحد •• اذهب وقابل رئيس التحرير والمطب

منه أن يقرأها أمامك •

ولم أتصور قط أنني أجسر على ذلك العمل •• ولم أشك في أن

رئيس التحرير سيأمر بطردى شر طردة •

وتركنى صاحبي وجلست وحدي أفكر ، وأنا كما تعلم رجل

خجول •• يسرى الخجل في عروقي مسرى الدماء ، وانتهى الأمر

الى التصميم على عدم الذهاب وعلى أن أرسل القصة بالبريد ،

وليفعلوا بها ما شاءوا •

وحملت القصة لألقى بها في صندوق البريد •• وخطر لى في

الطريق خاطر مفاجيء ، لم لا أجرب زيارة الأستاذ (•••••) في

داره ؟

لقد كانت داره قريبة منا وهو صاحب مجلة واسعة الانتشار ••

لا يكتب فيها سوى كبار الكتاب ، فماذا على لو نهبت اليه في وقت

راحته وسألته أن يقرأها ويرى ان كانت تستحق النشر •

وأخذت أشجع نفسى قائلا انى لن أعدم طريقة أقنعه بها لقراءتها ،

وان الرجل لا شك سيخجل من زيارتى له في داره ولن يلقانى بغير

الترحيب •

واخترت الفكرة في رأسى واتجهت الى الدار ، وييد مرتجفة

طرقت الباب •

وفتحت لى الخادمة ووقفت بالباب تسألنى عما أريد . . واطل
 وراءها وجه طفلة صغيرة تسألنى بصوتها الرفيع : « أتريد بابا ؟ »
 وأنبات الخادمة أنى أريد الأستاذ . . . فعدت تسألنى دون أن
 تقسح لى طريق الدخول : « نقول له مين ؟ » . .
 ولكن الطفلة لم تعطنى فرصة الاجابة . . ورأيتها تدفع الخادمة
 وتجذبنى من يدى صائحة : « انه موجود . . تفضل » .
 وقادتنى الطفلة الى حجرة الاستقبال ، وذهبت الخادم لتنبىء
 سيدها وجلست الطفلة تعبت ببعض الدمى المرصوصة على احدى
 المناضد . . وتوجه الى من آن لآخر أسئلة تافهة مضحكة ، وتقص
 على ما فعلت فى يومها وبعض ما سيحضره لها أبوها .
 وأخيرا دفع الباب ودخل الرجل الذى كنت أعلق عليه أملى .
 ولم يبد على الرجل أنه ارتاح لمنظرى ، وشد على يدى .
 وجلس على مقعد أمامى ، ثم أمرنى بالجلوس قائلا :
 - تفضل يا أستاذ .

وسادت بيننا فترة صمت أحسست فيها أننى قد أصبحت كما
 يقولون فى « نصف هدومى » وأخذت أجهد الفكر كيف أبدأ الحديث
 . . هل أبدأ بمجاملة الرجل بمدح بعض ما قرأت له ، أم أتجه الى
 الموضوع رأسا وأسأله عما أتيت من أجله ؟
 وطال الصمت ، وقطعه الرجل بقوله :
 - أى خدمة يا أستاذ ؟

وازداد بى الحرج وارتج على وفتحت فمى لأتكلم ، ثم أغلقته ،
 وتكرر الأمر بضع مرات حتى خشيت أن يظن بى الرجل بلها فيطرده
 شر طردة ، ولم ينقذنى سوى الطفلة الصغيرة التى تقدمت تحمل الى
 صندوقا من الحلوى وسألتنى :
 - تريد « بومبون » ؟

ومددت يدي فأخذت من الصندوق واحدة ألوكها في فمي وأستعين
بها على لم أطراف شجاعتي ، ومدت الطفلة يدها فأمسكت بالظرف
الذي وضعت فيه القصة وعادت تسألني :

– ايه ٠٠ صور ٠٠ هل أستطيع الفرجة ؟

وهنا حلت عقدة لساني ، وقلت موجها القول للرجل :

– هذه قصة يا سيدي ٠٠ قصة كتبتها وخيل الي أنها قد تصلح

• للنشر •

ثم صمت برهة أتمالك فيها أنفاسي وعدت أقول :

– واني أتمنى لو وجدت من وقتك بعض الفراغ ، حتى تقرأها •

وصمت مرة ثانية فقد بدت على وجه الرجل علامات الغيظ وخيبة

• الأمل •

ولم أجد في ملامحه أي مشجع على المضي في الحديث •

وتكلم الرجل أخيرا وقال في شبه تأنيب :

– أظن أنه كان من الأفضل لو أحضرتها الي ادارة المجلة فاني

متعود أن أتخذ من البيت مكانا للراحة ! على أية حال يمكنك تركها

٠٠ وسأرى اذا كانت تستحق النشر ٠٠ وان كنت أتبتك سلفا بأن

لدينا من أمثالها المئات •

وأحسست من قوله بمرارة ، وعزت على نفسي التي عرضتها

لمثل هذا الموقف ، وحاولت جهدي أن أتمالك حتى لا يغلبني البكاء ،

فقد كنت أحس وقتذاك بالدموع قريبة من مقلتي ٠٠ دموع الفشل

والخذلان ، وندمت أشد الندم على أني لم أرسل القصة بالبريد •

وتقدمت الي الطفلة بقطعة أخرى من الحلوى على سبيل العزاء ،

وأمسكت بالظرف في يدها قائلة :

– سأضعه على المكتب •

ونفض الرجل فشد على يدي مودعا ، وخرجت أتعثر في أنيال
القشل ، واقسمت في نفسي ألا أعود الى الكتابة .
ومرت بضعة أيام ، وكنت مستلقيا في حجرتي عندما اندفع
صاحبي الى الحجرة وقد أمسك بيده المجلة الشهيرة وقذف بها الى
صائحا :

— مدهشة ؟ ألم أقل لك انها لا بد أن تنشر ؟
وأمسكت بالصحيفة أحملق فيها فوجدت اسمي قد نقش بالخط
العريض على احدى صفحاتها « بقلم الأستاذ ٠٠ » .
ولا أظنني أستطيع أن أصف لك فرحتي وقتذاك ، فقد امتلأت
نفسى بالأمل بعد أن شملها يأس حالك ، وعزمت أن أذهب للرجل حتى
أقدم فروض الشكر -

وذهبت الى الدار مرة ثانية ولقيتني الطغلة ، فأقبلت على مرحبة
كأن بيننا صحبة قديمة ، ولقيني أبوها فهناني على القصة .
ثم أشار الى ابنته :

— ان افضل في نشرها راجع اليها ، فقد دستها بين المقالات التي
أعدت للنشر ، وأخذها الجماعون فصفوا حروفها وحملوا البروفات
لأقراها فأصابتنى الدهشة ، وتساءلت من أين أتى الجماعون بهذا
الكلام .

وكننت قد نسيت كل شيء عنك وعن قصتك ، وأرغمني ما بالقصة
من تشويق الى قراءتها حتى النهاية فرأيتها من أبداع ما قرأت
فأمرتهم بانزالها في العدد الذي أعد للطبع .
وصمت الرجل برهة ثم أردف :

— وهكذا الحظ ، لا يمنح للانسان الا وليد مصادفة ، ولا يفصل
بين الشقاء والنعيم ، الا حادثة بسيطة قد تحدث وقد لا تحدث ، أو
كما قال الخيام :

أتري عمر الفتى قد علقا بسوى خيط وماذا حسما
غير خيط بين نور وظلام
وطلب منى الرجل أن أكتب كثيرا وأبدى استعداداه لنشر كل
ما أكتب .

★ ★ ★

وكننا قد وصلنا الى عابدين . . عابرين فى سيرنا درب الجمايز ،
وشارع الخليج ، وتوقفنا فى عابدين وأشار صاحبى الى احدى
عربات الأجرة وانطلقنا الى داره فى المنيرة .
وضمتنا حجرته ، وجلست على مقعد وثير ، وتعدد هو على
احدى الأرائك ، وأمر الخادمة أن تحضر لنا الشاي .
وقلت متسائلا :

— لم تحدثنى بعد عن « منزل الأنس » ؟
وصمت صاحبى فترة استجمع فيها شوارد أفكاره . . ثم اخذ
يتم قصته قائلا :

« وهكذا أصبحت بين يوم وليلة كاتباً معروفاً ، أو كما قال
بيرون : « استيقظت من النوم فرأيتنى رجلاً مشهوراً » .
وتهافتت على الصحف والمجلات ، فأعدت اليها ما سبق أن
أرسلته وقذف به فى سلة المهملات ، وتعمدت أن أطلب أجراً مرتقعا
فقد كان بى شعور الشامت الآخذ بثأر نفسه ، المنتقم لكرامته .
وكنت أحس فى قرارة نفسى أن الفضل فيما وصلت اليه من نجاح
يرجع الى الطفلة الصغيرة . . وكنت أشعر لها بشعور العرفان
بالمجمل . . وزادت الأيام أوامر الصداقة بينى وبين أبيها ، حتى
أضحى يرى فى أخا أصغر . . وأصبحت كأنتى فرد فى أسرته
الصغيرة المكونة من زوجته وابنته ، وكان كثيرا ما يلقي على أعباء
عمله ، فأقوم بها مرحبا مغتبطا .

ومرت الأيام ، والأشهر ، والسنون ، وأنا أقضى أسعد أوقاتي
بينهم ٠٠ وكنت أرى منزلهم منزلا لى ، أو كما كنا نسميه « منزل
الأنس » .

ونمت الطفلة وأصبحت فتاة كأنها الزهرة المتفتحة فى كمها ٠٠
تنشر فى البيت عبيرها ، أو كأنها طير غرد يملأ الدار بقرنيمه .
وكانت الفتاة تناديني بـ « عمى » وكنت لا ألقاها الا وأرفعها بين
يدي وأغمرها بالقبلات ، فما نسيت قط أنها هى التى جعلتني شيئا
مذكورا .

ولست أظن أن هناك امرءا استطاع أن يتمتع بقدر من السعادة
كذلك القدر الذى استمتعت به وأنا فى « منزل الأنس » ٠٠ المنزل الذى
لا يدخله الهم ٠٠ وكانت كثيرا ما تجمعنا المدفأة فى الشتاء ، حيث
أجلس لأقص عليهم القصص ، ونحتسى عصير القصب يرسله اليينا
الحاج محمود فى أباريقه .

وفى ذات يوم أصيبت الفتاة بوعكة ، ازدادت على الأيام فأضحت
داء عضالا .

وهنا بدأت تلف الدار وحشة أليمة ، لا يكاد يسمع فيها المرء
سوى همسات وزفرات ٠٠ وأحسست أن هناك غصة فى حلقى أو
كأن يدا تعصر قلبى ، فلقد كان بى شعور أب يوشك أن يفقد حشاشه
كبده .

وبدأت أشم فى جو الدار رائحة الخطر ، وبدا لى من وجوه
الأطباء أن خطبا مدلهما على وشك أن يحيق بنا ، فلقد كانت وجوههم
مظلمة متجهمة .

وفى ذات ليلة جلسنا فى القاعة كأن على رؤوسنا الطير لا ننبس
بكلام وقد توترت أعصابنا وأرهفت نفوسنا لا نكاد نجسر حتى على
الاستلقاء ، وكانت الأم تجلس مع الفتاة فى حجرتها ٠٠ ثم خرجت

الينا فقتلعنا اليها بأنفاس مبهورة ، وفي أعيننا نظرة تساؤل ٠٠
وتقدمت الى الأم وهمست « انها تريدك » ٠
ودلفت الى الحجرة التي ساد فيها السكون وعمت الظلمة واتجهت
الى فراشها فجلست على حافته ومددت يدي فأمسكت بيدها أربت
عليها برفق ، وأجبرت نفسى على الابتسام والتضاحك ، وقلت لها :
- أنت الآن أحسن ٠٠ وستشرق الشمس عليك فتصبحين فى خير
وعاقية ، ان شاء الله ٠

وهزت رأسها هزات خفيفة ، وهمست :
- ان الشمس لن تشرق على ٠٠ لا فائدة ٠٠ اقترب منى !
أسمعنى ؟

وحاولت جهدى أن أتمالك ٠٠ واقتربت منها وقلت :
- انى أسمعك يا حبيبتي ٠٠ ولكن لا تجهدى نفسك بالحديث ٠
ورأيته تمد يدها تحت الوسادة فتخرج الى مفكرة صغيرة
وتعطيها الى قائلة :

- احتفظ بهذه ولا تقرأها الا بعد ما أذهب ، واذا لم أذهب فأعدها
الى دون أن تقرأها ٠
وجذبت الفتاة يدي ثم وضعتها على فمها برهة ٠
ثم ذهبت ٠٠٠

أجل ! لقد ذهبت الى غير رجعة ٠٠٠ لقد رحلت عنا رحيلا لا اياب
منه ٠ لقد تركت الدار وأهل الدار ، وقد أصيبوا بلوعة أدمت قلوبهم
وأحرقت أفئدتهم ٠

وصمت صاحبي ، وتحشرج صوته ، ودمعت عيناه ، ولم يعد فى
حالة تساعده على اتمام الحديث ، ورأيته يمد يده فيفتح أحد أدراج
مكتبه ، ثم يخرج منه مفكرة صغيرة ٠٠ ويدفعها الى ٠
وأمسكت بالمفكرة فوق بصرى فى أول صفحة منها على ما يلى

« ٠٠ ما الحياة ؟ ٠٠ وما الانسان ؟! ٠٠ الحياة محيط من ظلمات
حالكة مدلهمة ، مجهول البداية ، مجهول النهاية . »

والانسان فيها زورق تدفعه ربح الزمن وتقلبه أمواج الأحداث
ونوء المحن ٠٠ لا يقر له قرار ، ولا تهدأ من حوله ثائرة ، دفته فى يد
القدر الغشوم والظروف الهوجاء فهو يهبط ويعلو ، ويندفع ذات
اليمين وذات اليسار ، بلا سلطان له على نفسه ، ولا تحكّم فى
مصيره .

وفى حلقة الدياجير وبين هدير الأنواء وزئير الرياح الهوج ،
قد تلوح له فى الأفق بارقة ترشده الى مرقاً يقيه عصف الريح ولطم
الأمواج ، فيندفع اليه عله يجد لنفسه منه مأوى يريحه من عناء ،
ويؤمّنه من خوف ٠٠ هذه البارقة هى ما يسمونه الحب ، وذلك المرقاً
هو قلب يفيض عليه من حناياه دفناً وهداية . ويندفع زورق الانسان
على ضوء البارقة فى لهفة وجنون ، فاما أن يصل الى مرقته فيقضى
بين أحضانه عمره ، ويجد من حياته حسنة ويستقر على قرة ، واما
أن يخبو الضوء قبل أن يصل اليه ٠٠ فتكون البارقة خادعة كاذبة ،
ويعاود سيره فى دياجير الحياة وبين أمواجها المتلاطمة حتى يصل
الى النهاية المجهولة . وكأنه ما ولد وما عاش .

ترى أى مصير سيندفع اليه زورقى فى هذه الحياة ؟ لقد لاحت
لى البارقة ، ولكنى لا أجسر على أن أتجه اليها ، فانى حائرة أتخبط !
هل تجسر فتاة أن تقول انها تحب عمها ؟ أجل ! انى أحب الرجل الذى
يلقانى فيرفعنى بين يديه ويجلسنى على ركبتيه كأنى دمية فى يده ٠٠
انى أحب رجلا ، يابى الا أن يعتبرنى ابنته ، أية حمقاء أنا !! ،

ولم أتم قراءة المذكرات فقد أذهلنى ما بها ، وكرهت أن أطلع
على أسرار فتاة ثوت فى باطن الأرض .

ومددت يدي بالمفكرة الى صاحبي ، ولم أنبس بكلمة . وأعاد
صاحبي المفكرة الى مكانها وهمس الى :
.. لقد دفعتني الفتاة في الحياة دفعتين : دفعة وهي طفلة حين
رفعتني من زوايا الخمول الى قمة الشهرة ، ودفعة عندما قرأت
مذكراتها ، فقد جعلت مني انسانا آخر ، انسانا يتأجج في صدره
حب لا تخمد ناره وتجيئ في قلبه عاطفة لا يملك الزمن اخمادها
ولا تستطيع الأيام محوها .. انسانا يعشق روحا طاهرة خلت من
أدران الأرض وشوائبها .. أجل ! لقد علمتني معنى الحب ، وجعلت
مني - كما يقولون - رجلا عبقريا !!

رجل قزير

أتم الأسطى ابراهيم زيتهم النجار نصف دينه وأقبلت زوجته
زكية تشاركه داره المتواضعة التى خلفها له أبوه .
لنبدأ بوصف الدار . . ثم أهل الدار .
الدار فى دمياط ، فى احدى الحارات الضيقة المتواضعة مكونة
من طابقين : الطابق الأول دكانان ومندره ، والطابق الثانى غرفتان
وردهة ومرفق مياه .
يشغل الدكان الأول المعلم على الخضرى بقرنبيطه ، وكرنيه ،
وطماطمه ، وكوسسته ، وبقية خضره ، التى تزخر بها الأرفف
والأقفاس ؛ ويشغل الدكان الثانى عم يهنس بائع الحلوى ، ولعب
الأطفال ، بمزاميره ، وطائراته ، وعرائضه ، وبرطماناته الملى بكافة
أنواع الملابس وبراغيث الست والمصاصات . وكان أشهر ما فى
الرجل مزماره الذى لا ينفك ينفخ فيه بين آونة وأخرى ، فتصدر منه
أصوات كأنها زغاريد النساء .
أما المندره فكان يشغلها الأسطى ابراهيم نفسه بالكراسي
والدواليب وغيرها من قطع الأثاث المحطمة ، التى يقوم بتصليحها
وترميمها .

أما الدور الثاني فقد اتخذته الرجل لسكناه ، وحشد فيه جهـ .
زوجته مع المخلفات العتيقة التي تركها له والده ، والتي يبصرها في
الدار مذ وجد على قيد الحياة .

هذا عن الدار . . أما عن أهلها فلا أظن وصفهم يحتاج الى كثير
جهد أو مشقة .

هم قوم قريرو العين ، ناعمو البسال ، وهب الله لهم من قناعة
النفس نخيرة كبرى أعانتهم على الحياة . . وهيأت لهم الرضا عن
كل ما حولهم .

الرجل كريم النفس . . طيب القلب . . ملء نفسه الايمان وملء
روحه التقى والورع . . راض عن كل شيء . . يرى الناس بعين
الرضا الكلية عن كل عيب ، المخفية لكل سوء . . أما عين السخط
التي تبدى المساوىء فهي عنده عمياء لا تبصر .

ولقد وافق شن طبقة . . فكانت امرأته لا تختلف عنه قليلا ولا
كثيرا . . فهي من النساء الطيبات ، القانتات ، الراضيات ،
لا تغتاب الناس ، ولا تذكرهم بمسبة . . تحب زوجها وتجد فيه نعمة
أنعم الله بها عليها .

كان الزوجان ينعمان بحياة رغدة هائلة . . وكان الرجل لا يكاد
يفارق الدار ، فهو اما في مسكنه أو في ورشته بين أكداس الأثاث
المحطمة منهمكا في دق المسامير أو خلعها . . كان كل عمله لا يزيد
على الترميم والترقيع . . يجلس وسط الحجرة على مقعده الصغير
وقد أحاطت به أكوام الكراسي القديمة والمناضد المهشمة .

أما الزوجة فهي في حجرتيها دائبة عاملة . . تكاد تنتهي من
عملية تنظيف الدار التي تشمل الكنس . . والمسح ، والتنفيض . .
حتى تبدأ في تجهيز الطعام وطهوه . . وهي في خلال عمـ! تحس

فى قرارة نفسها بالغبطة والرضا ٠٠ لا تكاد تكف لحظة عن الترنم
باحدى الأغنيات ٠

وكان أكثر ما يبعث التفاؤل فى نفس الزوجين ويشيع فى قلوبهما
السرور ٠٠ زمارة عم بهنس رغم ما كانت تحدثه من ضجيج ٠٠
وقالت الزوجة لزوجها وقد جلسا للغداء :

– هذه الزمارة تذكرنى بزغاريد عرسنا ٠٠ ان عم بهنس يجعل من
كل يوم لنا عرسا جديدا ٠

وهكذا كانت حياة الزوجين تجرى كزورق يسير فى رفق وهدوء
٠٠ لا نوء تعصف به ولا رياح هوج ٠٠ بل نسيم هادىء من الرضا
والقناعة يحركه فى لين ويسر ٠٠ ويدفعه فى مجرى سهل مستقيم
لا عقبات فيه ولا موانع ٠٠ حتى يصل الى نهايته المحتومة آمنا سالما
دون خدش ولا عطب ٠

ترى أية قصة يمكن أن نجدها فى حياتهما الآمنة المطمئنة ٠٠
حياتهما الطبيعية الهادئة التى لا التواء فيها ولا تعقيد ؟

هل يمكن أن يجد الكاتب فى أمثال هؤلاء القريرى العيون أبطالا
لقصصه ٠٠ ؟ هل يمكن أن يجد من حياتهم موضوعا لقصة ؟

لم لا ؟ ٠٠ لنتتبع زورقهما السائر فى رفق ولين ٠٠ بلا عواصف
ولا زوابع ٠٠ حتى نصل معه الى النهاية المحتومة ٠

الرجل قابع فى مكانه المعتاد يرفع يده « بالشاكوش » ويهوى به
فى طرقات آلية منتظمة ؛ والمرأة فى مطبخها تحرك يدها بشدة لتعطى
الوابور نفسا حتى تعجل بنضج حلة البامية ؛ وعم بهنس ينفخ فى
زمارته مطلقا الزغاريد ذات اليمين وذات اليسار ٠

ويقترب رجل أسود يحمل على ظهره دولابا صغيرا فيضعه أمام
الدار ثم يطرق الباب ٠

ترك الأوسطى ابراهيم المقعد الذى أمامه ٠٠ وألقى الشاكوش

من يده ٠٠ وقام ليبرى الطارق ٠٠ وبعد لحظات كان يتعاون مع الرجل على ادخال الدولار داخل المنذرة .

كان الدولار قطعة ثمينة من الأثاث بخشبه المتين وصنعه المتقن وأعمال الأويمة الدقيقة ٠٠ وأنبأه الخادم الذى حمله اليه أنه لسيدته زكى بك فوده وأنه يريد اصلاح وتركيب الساق المخلوعة ٠٠ ثم غادره وانصرف بعد أن اتفق معه على أجر الاصلاح .

وقف الرجل برهة يتأمل الدولار ٠٠ فما تعود من قبل أن يصلح مثل هذه الأشياء الثمينة ، وأخذ يتحسس النقوش التى به كأنه يتحسس ضريح أحد الأولياء ، وقد أخذ بدقة الصنعة ومهارة الصانع . ومضت بعد ذلك بضعة أشهر ، وفى ذات يوم بعد أن تناول الغداء مع امرأته ٠٠ لم يهبط المنذرة وحده ليتم عمل كعادته بل سحب زوجته من يدها برفق وطلب منها أن تهبط معه لأنه يود أن يريها شيئاً .

ووقفت المرأة تتأمل الدولار الدقيق الصنع ، البديع النقوش ، وسألت فى دهشة :

— ألم تعده الى أصحابه بعد ؟

— بل أعدته .

وهزت المرأة رأسها متسائلة دون أن تفهم ما يقصده ، فقال الرجل :

— لقد أعدت اليهم دولابهم ، أما هذا الذى أمامك ، فنحن أصحابه ،

انه ملكنا ٠٠ فأنا الذى صنعته .

وفغرت المرأة من الدهشة فاها ٠٠ واقتربت من الدولار فتحسسته

فى ذهول وقالت متسائلة :

— أنت الذى صنعته ؟ ٠٠ أنت وحدك ؟ صنعته كله ؟

وعلت شففى الرجل ابتسامة الغبطة والرضا وتمتم مجيباً :

– أجل .. أنا وحدي .. صنعته كله .. ما رأيك ؟
– مدهش !

وحمل الدولار الى أعلى ، ونقلت الملابس من داخل الصندوق
فوضعت فيه ، وتصدر الدولار حجرة النوم فخلع عليها رونقا
وملأها روعة .

ولم يعد سر الدولار خافيا ، بل انتشر أمره ، وذاع صيته ..
ولم يبق من الجيران أحد الا وقد علم به وحضر لرؤيته . وفي ذات
يوم حضر زكى بك نفسه صاحب الدولار الأصلي ، فقد بلغه الأمر ،
ووقف يتأمل الدولار في عجب ، ونظر الى الرجل قائلا :

– مدهش .. رجل فنان .. أوسطى ماهر ، صنايعى حقا .

منذ ذلك اليوم أخذ الرجل يكف رويدا عن عمليات التصليح
والترميم وبدأ يقوم بصنع بعض قطع الأثاث وعمل الأويمة وكلما
صنع شيئا كان يبعث على الإعجاب .

وبعد مضي عام كان قد كف تماما عن تركيب الأرجل وتصليح
الأررف .. وانتقلت ورشته من الندره الى محل متسع في أحد
الشوارع الرئيسية .. ذى واجهة زجاجية فضمة ، وقد وضعت
وراءها بعض قطع الأثاث المعروضة للبيع .

ولم يفكر الرجل طوال تلك الفترة أن يتخذ له صبيا أو معاونا
يساعده في عمله .. بل كان يقوم بكل العمل وحده .. حتى بدأ
يحس أن العبء قد ثقل ، ويات انجاز الأعمال المطلوبة منه في
مواعيدها المحدودة أمرا متعذرا ، فجلس ذات يوم يتشاور مع امرأته
ويسألها رأيها في أن يتخذ له معاونا يحمل عنه بعض العناء .

وكانت المرأة في قرارة نفسها تفضل لو أن زوجها اكتفى بمندرتة
الصغيرة وعمله المحدود ، فقد كانت تكره أن تراه متعبا مكدودا وكان
يتملكها نحوه شعور بالعطف والحنان ، شعور أشبه بشعور الأم

نحو ولدها وهي تراه ينهك نفسه في الدروس والاستذكار ، ولقد كان الرجل فعلا أشبه بابن لها .. ابن فنان نابغة لا يصلح كغيره من الفنانين في أعمال التعامل والادارة والتجارة ، فهو لا يجيد الحساب ولا يذكر المواعيد ، ولكنه ، بأدوات النجارة في يده ، ويقطعة من الخشب أمامه .. تسرى في أصابعه قوة سحرية ومهارة فائقة .. فيفعل بها العجب العجاب .. انه رجل فنان .. كما يشهد بذلك كل من تعامل معه .

وكانت المرأة تسد بأمومتها ذلك النقص فكانت تقوم عنه بأعمال الحساب وتذكره بالمواعيد .. وكانت تعتقد أن العمل يمكن أن يسير على هذا المنوال وأنهما لن يكونا في حاجة الى معاونة أحد ، حتى بدا لها الرجل في ذلك اليوم وقد أصابه الهزال من فرط الانهاك وزاد جسده نحولا وضمورا .

وتحسست المرأة رأسه برفق ، وربتت على ظهره بحنان كأنه طفل صغير وقالت له :

— أجل .. انك لا تستطيع أن تتحمل العبء كله .. لا بد أن يكون هناك من يعاونك على الأقل في أعمال النجارة ، على أن تقوم أنت بالتشطيب وعمل الأويمة ، فلا أظن هناك من يستطيع عملها مثلك . وابتسم الرجل ، فقد سره أن تمتدح المرأة عمله ، وأن ترى في عمله فنا لا يستطيع غيره أن يفعله .. ولقد كان كثيرا ما يملكه العجب من أنها رغم جهلها بالعمل نفسه ، لها عين بصيرة نافذة تستطيع أن تميز بها العمل الجيد . وكان يحس أن أكثر ما يحجب اليه امرأته هو فرط احترامها لعمله ، وتقديرها له .

كانت اذا ما أبصرته قد انتهى من احدى قطع الأثاث وأتم حفر نقوشها تقبل عليه باعجاب مفرط وتتحسس نقوشها بأصابعها برقة ورفق كما تتحسس الأم رموش طفلها المستغرق في نومه . وعندما

كانت تجرب ادخال درج صنعه لاحدى المناضد ، كانت تدخله برفق .
وتخرجه ببطء وقد أحاطته بجو مملوء بالاعجاب كأنها لم تر من قبل
درجا يركب فى منضدة .

لشد ما كانت المرأة تقدر نبوغ الرجل !! . . . وكانت تلك هى
الرابطة السحرية التى تشد أحدهما الى الآخر .
وهكذا اتفقا على احضار من يعاونه ، ولم يبق الا الاتفاق على
الشخص الصالح .

اقترحت المرأة أن يتخذ له معاونا طيب الخلق ، هادىء الطبع ،
وأن يجعل منه أخا وزميلا ، لا معاونا فقط . . . ولم يكن للرجل سوى
هذا الرأى ، ولم تمض لحظات حتى كانا قد اتفقا على أن خير من
يصلح للمهمة هو الأوسطى على الشحط ورات المرأة أن يدعوه الى
الغداء من الغد ، ثم يعرض عليه العمل معه .

وشعرا أنهما قد انتهيا من حل مشكلة عويصة . . . وزادت
نفساهما رضا على رضا . . . وقاما الى القرش فرقدا فى هدوء . . .
ومد الرجل يده فى الظلمة يتحسس بها شعر المرأة ووجهها ، وأحست
المرأة بيده فوق شفتيها فقبلتها بحنان ، ثم دفن رأسه فى صدرها
وراح كلاهما فى نوم هادىء عميق وسادت السكينة حول النفسين
الراضيتين .

وفى اليوم التالى حضر الأوسطى على الشحط ، وكان اسما على
مسمى ، فلقد كان شحطا حقا ، ونظرت اليه المرأة وقارنت بينه وبين
زوجها الضئيل التحيل ، واقتنعت بأنه ليس هناك أسهل من أن يطويه
بين يديه ، ويلقى به من النافذة .

وبقدر ما كان الأوسطى على ، شحطا فى جسده ، كان قزما فى
نفسه ، فقد كان رجلا بسيطا ، طيب القلب ، شديد الخجل ، كثير
الصمت ، لا يتكلم الا بقدر ما يسأل ، وانتهى ثلاثتهم من الغداء وقد

اتفقوا على كل شيء ، دون أن يجدوا أية مشقة فى الاتفاق ! ، وهل يصعب الاتفاق الا على نوى النفوس الخبيثة الطامعة التى تملؤها الأنانية ويفزوها الحقد ؟

وهكذا احتل الأوسطى على مكانه فى المحل ، فأخلى له ركنا حيث وضع البنك الخاص به وبدأ عمله فى صمت وسكون بجوار الأوسطى ابراهيم وضاعفت الست زكية كمية الغداء التى كانت تحملها فى الظهيرة إلى المحل ، فلقد أصر الزوجان على أن يشاركهما الأوسطى على غداءهما ٠٠ ولم لا والمثل يقول : اللقمة اللى تقضى واحد تقضى اثنين ، ما دامت النفوس قانعة .

وكان الزميلان ، كما سبق القول ، من نوع صامت لا يتحدث ٠٠ فكانا يقضيان طيلة يومهما دائبين على العمل ، مغرقين فى الصمت ٠٠ لا يكادان يتبادلان من الكلمات الا ما تحتمه الضرورة ٠٠ ويظل الشحط منحنيا على البنك بجسده الضخم لا يكاد يرفع رأسه الا حين تحضر المرأة بالغداء ، فيذهب فى سكون يغسل يديه على الحوض - ولكن ليس قبل أن يتم المعلم ابراهيم غسل يديه ويدعوه الى التفضل -- ثم يجلس فى حياء الى المنضبة التى رصت عليها الصحون ، وييسمّل قبل أن يضع فى فمه اللقمة الأولى ثم يحمد ربه بعد اللقمة الأخيرة .

ومرت الأيام بالزميلين ٠٠ فازدادت بينهما الثقة ٠٠ وتوثقت عرى الصداقة ، ومع ذلك فلم ترفع الكلفة بينهما ، فقد كان كلاهما حيا خجولا ٠٠ واستمرت حجب الاحترام التقليدية تقوم بين أحدهما والآخر ٠٠ ولم يجسر واحد منهما أن ينادى الآخر باسمه مجردا من لقب معلم أو أوسطى ، وما تحدثا قط فى الأوقات القليلة التى كانا يخرجان فيها من صمتهما ، الا فى شئون العمل أو فى أشياء عامة تافهة ٠٠ أما شؤونهما الخاصة فما حاول أحدهما أن يخوض فيها.

قط ٠٠ اللهم الا مرة واحدة كانت الأولى والأخيرة ٠
مرة واحدة حاولت المرأة أن ترفع فيها الكلفة بينهما وبين
الأوسطى على وكان ذلك عندما دعواه ذات مساء عقب انتهاء العمل
الى العشاء معهما ؛ وجلس ثلاثتهم يتناولون الطعام في سسكون
لا يقطع صمتهم الا أحاديث متقطعة عن أحد الزبائن ، أو عن حجرة
نوم يجب أن ينتهى منها بسرعة ، وعن تجديد بعض أدوات المحل ٠
وانتهى العشاء وقدمت الست زكية القهوة ، وبدأ المعلم ابراهيم
يخرج صندوق الدخان ويلف سيجارة له وأخرى لصاحبه قائلاً :
- سيجارة عند العشاء هي أمتع سيجارة ٠٠ تساعد على الهضم
وتزيل تعب اليوم ٠

وأخذ الرجلان ينفثان الدخان ، وتصاعدت حلقاته في جو الغرفة ،
ووصل بعض دخانها الى أنف المرأة فشمقتها بلذة وقالت ضاحكة :
- لقد تعودت أنا الأخرى شم سيجارة المساء ، انها شيء ممتع
حقاً ٠

وانتهى الأوسطى على من تدخين سيجارته ، ونهض من مقعده
محاوفا الانصراف ، فقال له المعلم ابراهيم :
- بدرى يا أوسطى ٠
- لقد حل ميعاد النوم ٠٠ انى كالأطفال لا بد أن أكون فى فراشى
قبل التاسعة ٠

وضحكت الست زكية وقالت للرجل فى صوت رقيق :
- أما أن لك أن تتزوج يا أوسطى على ٠٠ انك فى حاجة الى من
يؤنس وحشتك ٠٠ ان رحلة الحياة طويلة شاقة ، والطريق مظلم
موحش ، ولا بد لكل انسان من رفيق يعينه على مشاق السفر ووحشة
الطريق ٠

ولم يجب الرجل ، وأطرق ، ثم خيمت على وجهه سحابة اكتئاب ،

وتملكه الخجل ، وأسرع فى توديع الرجل وزوجته فى شىء من الارتباك • وهبط الدرج فى عجلة ، وبعد لحظات كان قد احتوته ظلمة الطريق ووحشته •

لقد نكأت المرأة بقولها جرحا خيل اليه أنه اندمل • لقد فكر الرجل فى الزواج منذ زمن طويل ولكن الستين توالى والمسألة لا تتعدى طور التفكير •• لقد أضحى الآن فى الأربعين •• ان الوقت متأخر •• لقد قطع معظم الطريق وتعود وحشته •• وهو يستطيع أن يتم السير وحيدا •• ثم ان هناك سببا أساسيا •• سببا لم يحاول أن يتعمق فى بحثه أو يسأل نفسه عن معناه وعلته ومصدره ، ولكنه كان يعرف أنه قائم •• وكان موقنا به ، واثقا من وجوده •• وهو أنه لا يتصور قط أنه يستطيع الذهاب الى الست زكية واخبارها أنه سيقترج مخلوقة أخرى •

★ ★ ★

بعد أسبوع من تلك الليلة استيقظ أهل الحى على ضجيج وصراخ ، وشاهدوا ألسنة اللهب وقد تصاعدت من احدى الدور وتكأأ القوم على الحريق يحاولون اطفاءه وحضر رجال المطافىء بعد فترة قصيرة ، ولم تخدم النار الا بعد أن حرقت الدار وبيضع دور مجاورة • وهبط المعلم ابراهيم من داره ، واندفع بين الناس مستطلعا الأمر ، ووقف أمام الدور المحترقة متطلعا ببصره فى زعر شديد •• وقد أحس برعدة تسرى فى جسده •• لقد كانت دار صاحبه بين الدور المحترقة •

واندفع يشق طريقه بين جمهرة الناس محاولا الوصول الى الدار ، ولكنه لم يسر خطوة حتى وجد الأوسطى على قد وقف بجسده الضخم ، عارى الرأس حافى القدمين •• وقد أمسك فى احدى يديه منبه ، وبدا عليه زهول شديد •

وربت المعلم ابراهيم على ظهره برفق ، وسحبه من ذراعه ليخرجه
من بين الجماهير ، فانتفض الرجل بشدة ، وأفاق لنفسه وقال فى
صوت هامس مبجوح :

– لقد احترق كل شيء .. فقدت كل ما أملك من حطام الدنيا :
غراشى ، وثيابى ، ونقودى .. لم أعد أملك الا هذا . وأشار الى
المنيه .

وأحس المعلم ابراهيم أن قلبه يدمى حزنا على صاحبه ، ولأول
مرة ذهب عنه حياؤه ورفع الكلفة ، فخاطب الرجل باسمه دون أن
يسبقه لقب « أوسطى » قائلا له :

– لا تحزن يا على .. احمد الله على نجاتك .. قضياء أخف من
قضياء .. هيا بنا .

وسار الرجل بجواره مطأطئ الرأس ، وأردف المعلم ابراهيم
يقول :

– لا تحمل هما .. ان بيتى بيتك .. ان لدينا حجرة زائدة تستطيع
ان تستعملها للنوم حتى تسوى أمورك .

ولم يكن الرجل فى حالة تسمح له بالاعتراض على أى شيء ،
ووصل الى دار صاحبه وهو ذاهل شارد ، حتى وقف أمام الست
زكية ، فبدأ يعود الى وعيه ، وتملكه الخجل من منظره ، وحاول أن
يعتذر عن الدخول ، ولكن المرأة قالت له بصوت رقيق :

– اتفضل يا أوسطى على .. احمد الله على سلامتك .. ان الدار
ارك ، وأهلها اهلك .. ان الله يبعث بالشدائد ليجلو صدأ القلوب ..
يعلمنا كيف يعين بعضنا بعضا .

ودخل الرجل الى حجرة الجلوس بعد أن أعدت له المرأة الأريكة
التي بها حتى يرقد عليها ، وودعه المعلم ابراهيم بقوله :
– تصبح على خير .. لا تحمل هما .. يمكنك استعمال الحجرة

حتى تجد لك بيتا ، وفى الصباح تستطيع أن تبتاع ما يلزمك من
الثياب .

وأغلق الباب عليه ، وبعد لحظات احتواه الفراش بجوار امرأته
وتلمس أحدهما يد الآخر فى الظلمة وهمست المرأة :

– يجب أن نعامله بقدر ما نستطيع من الرقة . . يجب أن يشعر
أنه فى بيته . . أليس كذلك ؟

– بالطبع . . انى سأعطيه فى الصباح بضعة جنيهات يبتاع بها
ما يلزمه . . انه يستحق كل خير . . ولا أظننى أستطيع العمل بدونه .
– انه وحيد فى الحياة ، وليس هناك قلب يحس مصابه ويشاركة
أحزانه وأشجانه . . ان الوحدة شاقة مضية .

وتحسس الرجل شعر امرأته ووجهها فأحس بقطرات من الدمع
تندى جفنيها فرفع يدها برفق الى شفتيه وهمس قائلا :
– كيف يكون وحيدا . . من تدمع من أجله مقلتك ؟

وفى اليوم التالى جلس الثلاثة للغداء ، وقال الأوسطى على انه
سيذهب عقب انتهاء العمل للبحث عن شقة . . وأجابه المعلم ابراهيم :
– لا داعى للعجلة . . ان الحجرة خالية . . ويمكنك استعمالها
كما تشاء .

ثم نظر الى امرأته بقلق خشية ألا تكون موافقة على رأيه ، ولكن
المرأة ابتسمت وقالت مؤمنة على قوله :
– أجل . . أجل . . لا داعى للعجلة . . ان وجودك بيننا لا يثقل
علينا قط .

ومرت الأيام بعد ذلك والأوسطى على يقطن مع المعلم ابراهيم
فى حجرة الجلوس ، وبدأ الرجل وزوجته يسميان الحجرة : حجرة
الأوسطى على بدلا من حجرة الجلوس . . ولم يعد هناك من يفكر فى

خروجه ٠٠ وكان آخر مظهر لاستيطان الرجل الدار عندما وضع المنبه على البوفيه فى الصالة قائلاً فى استحياء :

– هل تسمحان بوضعه هنا حتى يمكن لثلاثتنا استعماله ؟ انه الشئ الوحيد الذى أبقاه لى الحريق ٠٠ لقد ورثته عن أبى ٠٠ انه منه مخلص أمين لا يتوقف عن عمله لحظة ، لا يقدم ولا يؤخر .

وضحك الثلاثة ٠٠ واتخذ المنبه موضعه فوق البوفيه ٠٠ يدق دقاته المنتظمة الهادئة ٠٠ الشديدة الشبه بدقات قلوب أهل الدار ، القلوب الآمنة المنتظمة الراضية بالقائمة ٠٠ دقاته الهادئة التى ينساب معها زورق حياتهم السائر فى لين ورفق ٠٠ السائر وكأنه غير سائر ٠٠ ينزلق فى بطء وتؤدة فى مجرى الزمن ، وكأن راكبيه – من فرط نعومة السير – لا يحسون الليالى تمر والآيام تتعاقب .

واستمر المنبه يدق مع السنين فى الدار الساكنة ، واستمر الزورق يسير ، واستمر الركاب الثلاثة فى الكبر سويًا ٠٠ كأنهم ثلاثة أشجار قد تجاوزت وتشاركت فى خصب الأرض الطيبة ونمت كل منها فى طريقها آخذة نصيبها من الماء والشمس والهواء حتى دب فيها الهرم وأخذت تتساقط أوراقها .

وكان المعلم ابراهيم هو أكثر الثلاثة تعرضاً لفعل الزمن ، وأسرعهم هرماً واسقاطاً لأوراقه ، فلقد انحنى منه الظهر ، وتهدج الصوت ، وأبيض الشعر ٠٠ وتناقلت مشيته وقل جهده ، وان كانت أصابعه استمرت كما هى ماهرة فنانة ، أما الست زكية فقد ترهل جسدها وازدادت بدانة ٠٠ وكلما ازداد بها الهرم ازدادت نفيها طيبة وقلبها رقة وجمالاً . وازداد حبها للناس وعطفها عليهم ٠٠ لقد كانت دائماً تتلمس لأخطائهم المعانير وتترفق بهم وتحنو عليهم . أما الأوسطى على الشحط فقد استمر شحطاً كما هو ، محافظاً

على قوته وضخامته ٠٠ ما تراخت عضلاته ولا انحنى ظهره ٠٠ بل
استمر كما هو ٠٠ متين البنيان ، عريض المنكبين ٠

مضى عشرون عاما على يوم الحريق ٠٠ عشرون عاما والرجل
يعيش فى الدار كأنه واحد من أهلها ، والزورق يسير بثلاثتهم فى
هدوء ورفق ، دون أن يطرأ على حياتهم أقل تغيير حتى كان ذات يوم
بلغ أحدهم نهاية رحلته فانزلق من الزورق ٠

مات المعلم ابراهيم وكان ذلك فى يوم أحس فى صبيحته ببعض
التعب وذهب الى الحانوت كعادته ، ولكنه عاد الى الدار فى الظهر ،
وأنبأ امرأته أنه متعب بعض الشيء ، وأنه فى حاجة الى قليل من
الراحة . ووقد على الفراش وقد بدا شاحب الوجه ، منهك الجسد ،
وأخذ يرقب نظرات امرأته القلقة ، وعلت شفقيه ابتسامة رقيقة وسألها
قائلا :

– ماذا يقلقك ؟

– لست تبدو كعادتك ٠٠ يجب أن نحضر طبيبا ٠

– لا ٠٠ لا ٠٠ إن المسألة لا تستحق ٠٠٠ انى أريد الراحة ٠٠

لا شىء أكثر من هذا ٠

ومد يده فأمسك يدها وشد عليها بحرارة ، وتصاعدت من أسفل
الدار صوت زمارة عم بهنس ٠٠٠ وانطلقت منها الزغاريد كما تعودت
أن تنطلق منذ عشرات السنين ٠٠ لقد هرم الرجل ٠٠ وما هزمت
زمارته ٠٠ ولا خفتت زغاريدده ٠

وهمست المرأة ضاحكة :

– أسمع الزغاريد ٠٠ زغاريد فرحنا ٠٠ انها لم تخفت لحظة ٠٠

لقد كان كل يوم من أيام زواجنا عرسا ٠

وجذب الرجل يدها فوضعها على شفقيه وطبع عليها قبلة

شاكرة ٠٠ ثم أغمض عينيه وقاضت روحه صاعدة الى السماء
ناعمة هائلة ٠٠ كما كانت فى الأرض قريرة راضية ٠

وعندما مات الرجل انتقل الأسطى على من الدار فاستأجر حجرة
فى منزل قريب ٠ واستمر يؤدي عمله فى المحل مغرقا فى صمته كما
كان يفعل فى حياة الرجل ٠٠ وتولت المرأة ادارة المحل ، وأخذت
تشرف على الحسابات وعلى البيع والشراء ، ومضى عام وهى تكافح
وتناضل حتى أضناها الجهد وأنهكتها المشقة ، والرجل يرقبها فى
اشفاق وخوف ٠٠ حتى كان ذات يوم رقدت فى الدار ، فذهب لزيارتها
وجلس أمامها مطأطئ الرأس ، وقد تملكه الخجل كعادته ٠

ومضت فترة صمت طويلة فتح الرجل فاه ، وهم بالكلام عدة
مرات ولكنه أغلقه ثانية ، وأخذ يتنحج مرتبكا ، وأخيرا جمع أطراف
شجاعته وبدأ الحديث :

– لقد أسديتما الى جميلا لن أنساه مدى العمر ٠٠ لقد أويتمانى
وأعتمانى على الحياة ، ولقد عاملنى زوجك بأكرم ما يعامل به
انسان ، وكم أود لو استطعت أن أرد اليه بعض صنيعه ٠٠ انك فى
حاجة الى رفيق يعينك على السير بقية الحياة ٠٠ انى فى الستين
من عمرى ولقد انطفأت فى نفسى جذوة الشباب وما يتبعه من احساس
بالحب ٠٠ بل لا أظن لمثلنى أن يتكلم فى مثل هذه المسائل ، ولكن كل
ما أبغيه هو أن أكون معك فى الدار حتى أقيك السوء ، وأذهب عنك
الوحشة ، وأن أتولى عنك شؤون المحل وأرفع عنك عبء العمل ٠
ونظرت المرأة الى الرجل المطرق ، وخيل اليها أنها تبصر أضواء
الاخلاص تشع من قلبه ٠

أن زوجها الراحل لو استطاع النطق لشكر الرجل على جميل
قوله ، ولسره أن تجيبه الى مطلبه ، وأى خطأ هناك فى أن يتعاوننا فى
خريف الحياة !! أى خطأ فى أن يركبنا زورق الحياة سويا فيتهادى

بهما حتى يذهب بكل منهما الى نهايته ؟ ألم تقل هي نفسها : ان الله يبعث بالشدائد ليجلو صداً القلوب ، ويعلمنا كيف يعين بعضنا بعضا .

وتزوج العجوزان ، وعندما جمعتهما الدار سويا أول مرة بعد وفاة المعلم ابراهيم عقب عودته من المحل فى المساء ، جلسا حول منضدة العشاء كما تعودا أن يجلسا فى الأيام الغابرة ، وحملت النافذة الى المرأة صوتا حبيبا الى سمعها ، هو صوت الزغاريد المنطلقة من زمارة عم بهنس ، وترقرقت الدموع فى مآقيها . . . ولانت بالصمت . . . لقد كانت تلك الزغاريد خاصة بها هى والمعلم ابراهيم فقط . . . ان الأوسطى على لا يعلم عنها شيئا . . . لقد كان لها عرس واحد . . . هو عرسها مع ابراهيم ، ولقد كانت تلك زغاريدته ، وستبقى زغاريدته حتى نهاية العمر . . .

وانتهيا من العشاء . . . وأخرج الأوسطى على علبة الدخان ولف له سيجارة وأخذ ينفث الدخان حلقات فى الجو ، ووصلت رائحة الدخان الى أنفها ، ونظر كلاهما الى المقعد الخالى ، وبدا كل شيء كما كان منذ أعوام . وكان المعلم ابراهيم ما فارقهما قط ، ووصلت الى أنتيهما دقائق المنبه .

ونهضت المرأة قائلة :

– أظن الوقت قد حان للنوم ؟

واتجهت المرأة الى حجرتها التى اعتادت أن تنام فيها هى والمعلم ابراهيم ، واتجه الرجل بدوره الى الحجرة التى تعود أن ينام فيها وألقى كل منهما الى الآخر نظرة ملؤها الرضا والقناعة . وقال الرجل كما تعود أن يقول دائما :

– تصبى على خير يا ست زكية .

وأجابته المرأة كما تعودت أن تجيب دائما :
- تصبح على خير يا معلم على .
وسادت السكينة الدار وخيم الصمت .
ورقدت نفوس أهلها قريرة ناعمة ، ولو جسدت الأرواح ، لشاهد
الناس روح الزوج الراحل تحوم حول الدار وهي أتعم الأرواح بالآ
وأكثرها رضا .

رجل كافر

حدثنى صاحبي ، وقد شرد بذهنه وبصره . وزفر زفرة حارة
موجعة ٠٠ قال :

– كثيرا ما أسائل نفسي : لم كان أحب الأشياء اليها في هذه
الحياة هو أضرها بها . وأشدّها تحريما عليها ؟ ! ولست أدري والله
أيهما كان أسبق من الآخر . وأيهما كان مصدر الخطأ ؟ . أهو شغف
الانسان بكل ما حرم عليه وأضر به . أم تحريم الطبيعة ووضعها
الضرر والأذى فيما شغف به الانسان ؟ أجل ٠٠ من هو أصل الخطأ ؟
الانسان الذي أولع بالضرر ، أم الطبيعة التي جعلت أكثر ما أولع
به الانسان مضرا مؤذيا ؟ !

على أية حال ، وسواء أكان هذا أسبق أم ذاك ٠٠ فما من شك
هناك في أن أصل شقاء الانسان ومصدر بلائه هو ذلك التناقض بين
ما يشتهى وما هو خير له ، أو بين ما يلذ له وما يجب عليه ، وما من
شك هناك أيضا في أنه لو عدل أحد الطرفين – الانسان أو الطبيعة –
عن رأيه ، وعكست آيته ، فعدل الانسان عن شغفه بكل ما حرم عليه
وسبب له الضرر والأذى ، فكره الخمر مثلا ، أو كرد التطلع الا الى

المرأة التي أحلت له ، أو لو عدلت الطبيعة من جانبها فجعلت في
الخمير شفاء للناس وصحة لأبدانهم . ولم تجعل التطلع الى النساء
اثما وفجورا .. أجل ، لو حاول الانسان أن يخضع للطبيعة ،
أو لو حاولت الطبيعة أن تتحور لكي ترضى الانسان ، أو لو التقيا في
منتصف الطريق .. فأية سعادة كانت تعم الانسان وقتئذ ؟ وأي بلاء
كان يرفع عنه ! ؟ .

ولكن أية فائدة هناك من تمنى المستحيل ؟ أية فائدة هناك وحياة
الانسان سلسلة من الشغف بما يضره ، والتطلع الى ما يؤذيه ؟ .
فهو اما أن يفعله فيصيبه الضرر الناتج منه ، واما ألا يفعله فيصيبه
ألم الكبت وشقاء الحرمان .. كل ما في الحياة كذلك .. منذ ولد
الانسان حتى يموت .. فاللعب عنده لذيذ ، ولكن مذاكرة الدروس
- وهي أثقل الأشياء على نفسه - هي التي تقيده ، وشرب المياه
المثلجة في الصيف لذيذ ، ولكنه من أضر الأشياء .. والنساء
لذيذات ، ولكنهن متعبات مؤذيات .. والخمر والميسر لذيان ، ولكن
فيهما كل الشر والتلف .

انى لأحس أحيانا ببغض شديد لهذه الحياة ، ان يخيلى الى أننا
لم نخلق فيها الا لنشقى .. فالشقاء هو الأصل في هذه الحياة ..
أما لحظات السعادة الخاطفة التي تتاح لنا بين هنيهة وأخرى ..
فليست الا قطرات تعيننا على استمرار السير في قفر الحياة وجديها
.. حتى لا نسقط اعياء في منتصف الطريق .. أو هي سراب خلب
يغرينا بتحمل الألم والشقاء حتى لا نفر من الحياة ونتركها غير
أسفين ولا نادمين .

في ذات مرة من هذه المرات .. التي تبدو لنا الدنيا فيها كثيية
مظلمة حقيرة تافهة .. والتي يحس فيها الانسان زهدا في الحياة
ورغبة في الهرب منها .. والتي ينظر المرء فيها فلا يرى أمامه حتى

- هذا المراب الكاذب الذى يتعلل به ، والذى يغريه باستمرار السير .
- فى ذات مرة من هذه المرات خرجت من الدار . . وأنا أحس على كتفى عبئا ثقيلًا من هموم الحياة . . وأحس بنفسى ضيقًا وتبرما ، ودلقت الى عربتى الواقفة أمام الباب وانطلقت بها فى طريقى الى الصيدلية لأحضر الدواء الذى كتبه الطبيب فى التذكرة التى طويتها فى جيبى منذ لحظات .
- وأمسكت بعجلة القيادة ، ومرقت فى الطريق الواسع المضاء . . وكان قد خلا الا من العربات المجنونة التى تمر بى كلمح البرق او من عربات الأوتوبيس بعجيجها وضجيجها كأنها معركة متنقلة .
- وأخذ ذهنى يسبح فى تلك الظلمات التى لفته ، وتتابع عليه الأفكار الكثيرة التى أحاطت به . . وأبصرت ابنى وقد رقد مريضاً بين ذراعى أمه .
- ابنى . .!! ابنى أنا . .!! يا للسخف ويا للحمق الذى يحدونا الى اتجاى نرية فى هذه الأض . . يا للمجنون الذى يدفعنا الى انسال أبناء . . نشقى بهم ويشقون بأنفسهم ! . كم كنت شغوفًا بأن أرى لى ابنا . . ترى لم كان منى هذا الشغف ؟ أترانى كنت أخشى أن أموت فتحرم الدنيا النسل الصالح ؟ ترى أكنت أخشى على هذه الثروة الهائلة ألا تجد لها وريثًا ؟ أى حمق حدا بى أن اضع على كاهلى عبئا . . وفى يدي قيدًا ، وأن أضيف الى أسباب الشقاء فى هذه الحياة أسبابًا جديدة ؟ بل أى حمق دفعنى الى الزواج ؟ . بل أى حمق ما زال يدفع الناس حتى الآن الى الرغبة فى الزواج ، رغم تلك التجارب القاسية التى مرت بمن سبقوهم والقوا بأنفسهم الى التهلكة من قبلهم ؟ . . ليس أعجب من أننا لا نجد زوجًا الا ويشكو من الزواج ، ولا عزبا الا وهو يرغب فى الزواج !
- ما أشبه الزواج بمصيدة . . وما أشبهنا قبل الزواج بفار خارج

المصيدة يغيرنا منها ذلك الطعم الشهى اللذيذ ، السهل المنال ..
فندخل المصيدة .. و تتمتع بأكله لحظة أو لحظات ، ولا تكاد تنتهي
من أكله حتى نتطلع الى خارج المصيدة ، زاهدين فى كل ما فيها ،
و بنفوسنا لهفة الى الخروج منها .. ولكن أنى للفأر أن يخرج من
المصيدة ؟

هذا هو أول قيد يكبل به الانسان نفسه طائعا مختارا ، أما القيد
الثانى والثالث والرابع .. ففى الذرية وحدها كفاية !

ولقد وضعت فى يدى القيد الأول ، ثم تلهفت على القيد الثانى فلم
ييخل به الله على ، وأضحى لى ابن ، وأصبحت أبا !

خيرونى أيها الآباء .. من منكم قد مر به يوم دون أن يعانى من
أبنائه ؟ وخبرونى لو جمعنا كمية الشقاء والحزن التى يسببها لنا
الأبناء ، ووضعناها فى كفة مع كمية المتعة أو الفرح التى يسببونها
لنا .. أيهما ترجح ؟ ! قولوا الصدق أيها الآباء الساكين !

أترى تلك الأفكار العاصفة الثائرة . التى طافت بذهنى وقتذاك ،
أكان منشؤها حزنى على ابنى لأنه مريض ؟ لا .. لا أظن .. فما كان
مرضه بالذى يستدعى منى ذلك الحزن ، فقد كان كل ما به وعكة
خفيفة ، أغلب ظنى أنها سرعان ما تزول ، وأغلب ظنى أننى لو كنت
أصبت بمثلها ، وأنا فى مثل سنه لما استدعت أمى طبيبا ، ولما احتاج
الأمر الى دواء . ولكن سبب ما بى من حزن ويأس انما هو أمه !!
أمه التى لا تكاد ترى وعكة ألت به أو ألما أصابه مهما كان طفيفا ،
حتى أراها تسرع بالترمو متر الى فمه .. فلا تكاد تبصر به شرطة
أو شرطتين ، حتى أرى الاكتئاب قد علا وجهها ، والبؤس قد جلله ..
فكأننا قد فجعنا بموته .. من يصدق أنى فى بعض هذه الأحيان لم
تكن تزعجنى قط فكرة موته - موت ابنى - حتى أضع حدا لذلك
الاكتئاب والحزن الذى لا يكاد ينتهى ؟

وفى هذه الليلة خرجت لأحضر له الدواء .. وبينفى من التبرم
بالحياة ، والزهد فى العيش.. ما جعلنى أتعجب من حرصنا على
البقاء فى هذه الدنيا ، واصرارنا على أن نتحمل كل ما فيها من شقاء
حتى النهاية .. ولكنى لم أستطع الا أن أهز راسى وأواصل سيرى
بالعربة .. حتى وقفت أمام الصيدلية .
وأعطيت الرجل التذكرة ، فأخذها من يدي ونظر اليها لحظة ثم
قال : « بعد نصف ساعة » .

وتركته وقلت لنفسى : « اذهب الى المنتدى الذى تعودت الجلوس
فيه ، ثم أحضر اليه بعد نصف ساعة » .

ولم يكن المنتدى يبعد كثيرا عن الصيدلية ، فلم تمض لحظة حتى
كنت أجلس فى ركن هادئ من أركانه متكئا على مقعد مريح ، سايحا
بعينى فى السماء المزدانة بالنجوم ، وكانت تلك خير طريقة أطردها
بها هموم الحياة عندما تتزاحم على صدرى ولا أجد من يعاوننى
على طردها .

ولكن السكون لم يطل .. فقد قطعه صوت سقوط شيء بجوارى
على الأرض .. أغلب ظنى أنه كتاب سقط عن منضدة .. وتلفت
فوجدت كتابا على الأرض .. ورفعت بصرى .. فوجدتها .. هى ..
وقد جلست على مقعد بجوار المنضدة .. وأصابتنى دهشة ..
فما كنت أشعر أن أحدا بجوارى .. وما كنت أتوقع قط أن أجدها
فى المنتدى فى ذلك الوقت .

لا تتعجل بسؤالى من تكون « هى » .. فستعرفها من حديثى بعد
لحظات .. لقد مددت يدي-بسكون وأمسكت بالكتاب ، ثم وضعته
على المنضدة .. وسمعتها تتمم بكلمة شكر ، فأشرت لها برأسى
« العفو » ، ثم عاودت الجلوس كما كنت .. كما كنت من حيث المظهر
فقط .. أما من حيث الاحساس والشعور ، فقد تغيرت كثيرا عما

كنت ٠٠ لقد أحسست بشيء من الراحة والهدوء ، وأخذ الضيق والتبرم ينقشعان عن نفسى الى حد ما .

وجعلت أختلس النظر اليها من طرف عيني ٠٠ فبدأ لى وجهها فى الضوء الباهت الذى اختلطت به الظلمة وهو أشد سحرا وفتنة ٠٠ وتمنيت لو استطعت أن أجاذبها الحديث فقد كنت أرى فى ذلك خير مبدد لسحب اليأس والضيق المخيمة على نفسى ، ولكنى لم أحس فى نفسى القدرة أو الجرأة على أن أكون البادئ بالحديث ، ولم يكن ذهنى فى حالة من الصفاء بحيث يسعبنى بشيء طلى أجعله موضع حديث . ولكنها - لدهشتى الشديدة - بدأت هى الحديث بلا ترقب منى ولا توقع ، بل كانت طريققتها فى الحديث تنبئ عن اللهفة والرغبة الملحة ، فقد مدت يدها الى بالكتاب قائلة :

- هذه قصة قد ظهرت حديثا لستيفن زفيج ٠٠ لعلك قد قرأت له ؟

- لقد سمعت عنه ٠٠ ولكن لم أقرأ له ، اذ لا أجد من وقتى

فسحة .

وخيم الصمت برهة ، ولكنها كانت - كما خيل لى - مصرة على ألا ينتهى الحديث بهذه السرعة ، فعادت تقول :

- الجو جميل جدا هذه الليلة .

ولم أكن أحس أن الجو كما قالت جميل ، فما ترك لى ذلك الحزن الذى كنت غارقا فيه فرصة للتفكير فى الجو أو الاحساس بجماله ٠٠ فلذت بالصمت .

ولكنها أصرت على الحديث ، وعلى ألا تقنع بالصمت فسمعتها تتساءل فى صوت به شيء من اللين : حزين ؟ !

وهنا أصبح الأمر أكثر مما أحتمل ٠٠ فقد كان كثيرا على أن أسمع صوتها الرقيق اللين يسألنى - أنا الذى لا أتلهف على شيء لهفتى على سماع صوتها - عما اذا كنت حزينا ، ولم أستطع أن

أمنع هزة عرقتى ونشوة سرت فى رأسى وتمنيت لو أفضيت إليها ،
ببعض أحزائى ، فمن غيرها أقدر على منحى جميل العزاء ؟ ومن
غيرها أجدر بأن يهب نفسى حلو الشفاء من مر الشقاء ؟
وقلت بصوت خافت كأننى أحدث نفسى : أجل حزين !
واقترت بمقعدى منى قليلا وأجابت فى رقة :
- وعلام الحزن ؟

- وعلام غير الحزن ؟!! وأى شئ يمنعنا من الحزن فى هذه الدنيا
التي لا يعرف الانسان فيها ماذا يريد ، والتي لا يفتأ يتطلع فيها الى
ما لا يستطيع نيله ؟ فهى سلسلة من التطلع والحرمان .. والآلام
والأحزان :

- هذا كلام لا يسهل فهمه .. أو قد يكون غير ذى معنى .. أو هو
فلسفة حزينة مبعثها ضجر نفسى .. قل ما يحزنك بالضبط ؟ .. أو
حدد مثلا لذلك الذى تدعوه تطلعا وحرمانا .. الام تتطلع ؟ ! ومم
أنت محروم ؟

· وكأنها لمست بكلماتها هذه موضع العلة فنكأت القرح وأدمت
الجرح وكأن فى سؤالها هذا مفتاح صدرى المغلق على ضيقه وقلقه .
وخطر لى عندئذ أن أفرغ كل ما فى جوفى ، وأن أقول ما لا يخطر
لها قط على بال ، هذه فرصة قل أن وجود يمثلها الدهر .. فهى أنتى
قد سألتنى .. فلا ضير على ان أجبت سؤالها .

ولكنى ترددت ، وخشيت العاقبة ، فقد كان هذا الذى أنوى أن
أقوله .. هو الجنون بعينه .. أو هو كلام لا يمكن أن يقوله مثلى
لمثلها ، لجرد سؤالها عما يحزنتنى ، ومع ذلك ومع اعترافى بأنه عمل
جنونى .. وجدنتى أنطلق قائلا :

- تريدان مثلا !! .. أتراك جادة فى قولك ؟ .. أتريدان حقا أن
تعرفى مثلا لما أتطلع إليه ، ولما أنا منه محروم .. أتريدان ذلك حقا ؟!

إذا فخذى مثلاً لذلك ٠٠ أنت ؟! أنت نفسك ؟! أنت نفسك مثل لما أتطلع اليه ولما أنا محروم منه !! لا تدهشى ، وعلى الأصح لا تتصنعى الدهش ٠٠ منذ عام وأنا أتطلع اليك ٠ لا أقول أحبك ، فكلمة الحب كلمة مائعة مطاطة ٠٠ بل أقول أتطلع اليك ٠٠ وأريدك ٠٠ أجل ! أريدك ، هذه هي الكلمة المضبوطة ، ففي ارادتي لك يكمن الحب والرغبة واللهفة والتمنى والاشتهاء ٠ منذ عام وأنا أريدك ، لا تقولى اننى متزوج لأننى أعلم هذا ، ولأننى حتى الآن لم أفعل ما يشيننى كزوج ولم أرتكب ما يسمونه الخيانة ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أمنع تلك الرغبة التى تتأجج فى صدرى كلما رأيتك ، فذلك شئ فى باطنى لا أستطيع السيطرة عليه ٠٠ وما استطعت أن أدفع عن نفسى تلك الشعور بالراحة والغبطة كلما جلست على مقربة منك أو كلما رأيتك مقبلة ، ولا استطعت كذلك أن أنود عن نفسى ذلك الاحساس بالضيق كلما رأيتك منصرفه أو كلما افتقدتك فلم أجدك ٠

لقد رأيتك أول مرة فى الصيف الماضى ، وانى لأذكرك تماما حينذاك كأنى رأيتك بالأمس فقط أو كأنى أراك الآن أمامى ٠٠ وقد وقفت بذلك المايوه الأسود الذى التصق بجسدك كأنما هو قطعة منك ٠٠ أو كأنما قد نما معك ٠٠ ولبست فى قدميك الدقيقتين قبقابا خشبيا ٠٠ يا للعجب ! ٠ أية مخلوقة كنت وقتذاك ٠٠ وأى سحر كان ينبعث منك ٠٠ ومن ذلك الجسد العجيب فى لونه الأبيض المشرب بخفيف الحمرة ؟ وأى فتنة أبصرتها فى ساقيك الممتلئتين ، وفى تلك الحسنه بساقتك اليمنى ، وفى خصرك الضيق ، وصدرك البارز المتحدى ، وفى شفقتك حيث يتمنى المرء أن يقضى عمره فى مسهما بشفتيه ، وأنفك الدقيق وعينيك العجيبتين ٠ ترى كيف استطعت مقاومة سحر ك فى هذه اللحظة ، وكيف أمكنتنى أن أكتفى وقتذاك بالنظر والتطلع ؟

ثم تعودت أن أراك بعد ذلك ، أو تعمدت أن أراك ، ولا بد أنك بدأت ،
تحسين بي أنت الأخرى وتعرفيننى ٠٠ كنا نتبادل النظرات ٠٠ وكنت
دائما أحاول أن أجلس بحيث أواجهك ، وبحيث يمكننى أن أراك
بسهولة دون أن ألفت الى الأنظار . وكنت أنت أيضا من جانبك حينما
تقبلين تنتقين مكانا يواجهنى حتى لكأنى أنا الذى انتقيت لك المكان .
ومرت الأيام وأنا لا أفعل شيئا سوى التطلع والتمتع بالنظر ٠٠
وكنت كريمة معى أبعد حدود الكرم ٠٠ اذا اعتبرنا أن مطلبى لم يكن
له أن يتعدى سوى التمتع بالنظر ، وانى لأنكرك وقد أقبلت فى يوم
من أيام الشتاء فانتقيت مقعدا يجاورنى وحولته حتى أصبح كلانا
يواجه صاحبه وجلست منى على قيد خطوات وكنت ترتدين جيب
رماديا وبلوزة التريكو البيضاء ٠٠ وكان صدرك يريد أن يقفز منها
٠٠ ثم وضعت ساقا على ساق ٠٠ ولم أستطع أن أمنع بصرى من
التسلل الى ساقيك . ثم الى حرف الجورب الذى نقشت عليه الزهور
الدقيقة ، ثم ارتفع البصر الى ما فوق الجورب فأبصرت جانبا من
ساقك فى صفائها ونقاؤها . وأبصرت بالحسنة ، فأحسست بنشوة
عجيبة تفوق تلك النشوة التى كنت أحس بها عندما أبصرك عارية الا
من لباس البحر .

ترى أكانت هذه الجلسة منك مصادفة أم كنت تقصدين بها أن
تبعثى الجنون الى رأسى ؟ سامحك الله .

ماذا تريد منى أن أقول أكثر من ذلك ، عام بأكمله قد مر بى ،
وأنا فى تطلع وحرمان وانتظار ما وراء سوى اليأس ٠٠ ماذا أريد
منك وأنا رجل متزوج ؟! ان أقصى نجاح لى معك يعتبر أقصى هبوط
وأكبر زلل ٠٠ ولكنى مع ذلك ٠٠ أريدك ٠٠ ولا أستطيع أن أدفع
لهفتى عليك ؟

هذا مثل للتطلع والحرمان ٠٠ لا تتهمينى بالجنون ٠٠ ولا ترمينى

بالسخر أو بالسقامة والوقاحة .. أنت البادئة بالسؤال .. وأنت
التي طلبت مثلا .. وما فعلت سوى الاجابة ، وسوى أن ضربت
مثلا .. فاياك أن تغضى وانسى كل ما قلته .

ولكنها لم تغضب .. ولم ترمنى بالجنون .. لا .. ولا
بالسخر ، ولا السفه والوقاحة ، بل مدت يدها بهدوء فأمسكت بيدي
وضغطتها برفق .. ولم تنبس بكلمة ولكن بعثت من عينيها نظرة
تركنتي ثملا .

ونهضت فنهضت وسرنا الى حيث العرية فجلست بجوارى
وانطلقنا الى طريق فى أول الصحراء وانتحينا ناحية خالية .

دع عنك لومى .. فقد كنت فى غير وعى .. لقد كنت مخلوقا
آخر .. انى قطعنا لم أكن أنا . لقد أصابني من النشوة أكثر مما
أحتمل .. تماما كما تفعل الخمر بشخص لم يتعود الشراب ، لنتصور
أنها قد أضحت بين يدي وأضحى جسدها يلامس جسدى .. هى التى
قد مضى على عام وأنا لا أتمنى شيئا سوى قريبا والنظر اليها ..
لقد استلقت أمامى وقد انساب شعرها وتهدل .. ثم أحسست
بشفتيها تحت شفتي وعبير أنفاسها يختلط بأنفاسى .. اننى أستطيع
أن أمسك بحروف الجورب الذى طالما تقت الى لمسه ، وأستطيع أن
أحسس بيدي الحسنة التى طالما أثارتنى .. لا .. لا .. لقد كانت
المقاومة ضربا من العبث .. وأقسم أن أى مخلوق سواى ما كان
يقدره أن يفعل ما فعلت .

وأفقتنا أخيرا .. وأوصلتها بالقرب من دارها .. ثم عدت الى
الصيدلية .

الصيدلية ! أية صيدلية تلك التى ينتظرنى صاحبها حتى هذا
الوقت ! لقد طلب الرجل منى العودة بعد نصف ساعة ولكنى عدت

اليه بعد ساعة ونصف لا شك أنه قد مل الانتظار فأغلق محله على
التذكرة وعلى الدواء .

وأحسست بضيق شديد . . ولكنى قلت اننا نستطيع الانتظار حتى
الصباح . . ثم عدت الى الدار . . فوجدت الأم قد احتضنت الطفل
وراحا فى سنة من النوم .

وتمددت على فراشى . . ولم تغفل عيناى الا بعد فترة طويلة ،
ولست أدري كم من الزمن غفلت عندما استيقظت على صوت بكاء ،
وأبصرت الأم قد احتضنت الطفل بلهفة وقد ارتسم الألم والخوف على
وجهها ، ورأيت ولدى قد راح فى غيبوبة . . وسمعتها تسألنى فى
صوت يقطعه البكاء : « أين الدواء ؟ » .

ولم أستطع سوى الكذب فقلت : ان الرجل لم يستطع تركيبه
الليلة ، وطلب الى أن أحضر لآخذه فى الصباح . . وأمسكت بالطفل
والألم يقطع نياط قلبى وأحسست بأنفاسه تضعف ، وأنا لا أستطيع
أن أفعل شيئا .

وعدوت الى العربة لأحضر الطبيب . أو لأسأله أن يكتب تذكرة
أخرى ، ولكن عندما عدت واياه الى الدار صدمنى صراخ من داخل
الدار . . ثم علمت أن الأمر قد قضى ، وأن الطفل قد ذهب فى لحظة
عين .

لقد مات ابنى ! . . ولست من السخف بحال أحاول فيها أن أوهم
نفسى أنتى قاتل ابنه . . ولكنى لا أملك فى بعض الأحيان أن أسألك
نفسى : لو أحضرت الدواء فى تلك الليلة أما كان يحتمل أن أنقذ
حياته ؟ ثم أحاول أن أجيب نفسى : ان العمر بيد الله ، وأنه ما من بشر
يستطيع أن يوقف فعل القدر . . ولكنى أسمع صوتا خفيا يهمس فى
نفسى قائلا : من يدري ؟ ربما كنت استطعت إنقاذه بالدواء . .
وأحس برجفة فى بدنى ورعدة فى قلبى !!

لقد فك من يدى أحد القيدىن ٠٠ فأحسست لفكه الما شديدا وبكيته
بدمع القلب ٠٠ لقد كان وجوده يتعبنى ولكن نهابه أضنانى ٠٠ ترى
أى شىء يرضى الانسان فى هذه الحياة !
وصمت صاحبى ٠٠ فأجبته هامسا بما ينطق به لسان حاله :
لا شىء ٠٠ قتل الانسان ما أكفره !!

رجل مهرج

لم يكن أكثر من ممثل مزلى ٠٠ أى مضحك مهرج ، يكتسب رزقه من استدرار الضحكات والتواثب أمام الناس كأنه فرقة لوز !!

ترى أى شيطان من شياطين الهوى دفع بالفتاة الى أن تتردى فى حبه ؟ أى ربح عاصفة هبت فألقت بالزهرة الناضرة الى الثرى وهوت بها الى الحضيض ؟

لو التمسنا العذر للفتاة ، وقلنا ان الحب جنون ٠٠ وأن العاشق مجنون لا سلطان له على نفسه ولا سيطرة له على عقله ، وان لوثة الحب التى أصابت الفتاة فى سننها الطائشة قد أعمت بصيرتها ، فلم تر حرجا فى أن تقدم على الزواج من المهرج .

أجل ٠٠ لو التمسنا العذر للفتاة الصغيرة بأنها محبة عاشقة ٠٠ ولا حرج على الأعمى والمجنون والعاشق .

وهل تكون هى خيرا من صاحب الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ٠٠ الذى ضحى بعرشه فى سبيل امرأة ؟ !

كل ذلك يمكن أن يكون عذرا للفتاة !! ٠٠ ولكن أى عذر يمكن أن نلتمسه لأمها هذه السيدة العاقلة الرشيدة الأبية المحافظة ، فى أن

توافق على الزواج يمثل هذه السهولة .. فلا تحاول أن تنتهر فتاتها
أو تسدى إليها النصيح والارشاد .

لم لم تحاول مرة واحدة أن تثنيها عن هذا الزواج .. وهى
الواسعة الثراء ، الطيبة الأصل ، التى لا تنتظر لابنتها الا كل ذى
جاه وسلطان ؟ ! .

ماذا حدا بالمرأة الحكيمة أن تأخذ الأمر كأنه قضية مسلم بها ،
فلا تحاول أن تبدي مجرد الضيق والاستياء ، حتى لكأنى بها راضية
كل الرضا ، وأنها لم تكن تتوقع لابنتها زوجا سوى ممثل هزلى ؟

كل ذلك كان يطوف برأسى وأنا حائر لا أدرى له سببا ولا علة
حتى خلوت بالأم ذات مرة .. امرأة تبلغ من العمر نيفا وأربعين
عليها مسحة من جمال وقور ، زاده وقارا ذلك الشيب الذى لم تحاول
أن تخفيه بالأصباغ .. فى حديثها طلاوة ، وفى لهجتها رقة .

ولم يطل بى الأمر حتى أفرغت ما فى رأسى من أسئلة حائرة ،
ونظرت الى المرأة برهة ثم ابتسمت قائلة :

– حتى أنت ؟ .. أنت الذى تضع الحب من كتابتك فى أولى مراتب
الحياة ، تدهش أن أكون راضية عن ذلك الزواج ؟
وترددت برهة ثم أجبتها مستضحكا :

– فى الكتابة فقط !! فنحن نحاول بالكتابة أن نهيبء لأنفسنا
ناحية من الارضاء ، لا تهيبء لنا الحياة ، ولكن عندما تصطدم هذه
الأشياء المثالية التى نكتبها بحقائق الحياة .. نجدها قد انهارت ..
فزواج ابنتك من هذا الممثل يمكن أن يكون موضوعا لقصة ناجحة ،
ولكن لو تتبعناه فى الحياة لرأيناها شيئا فاشلا ، فلقد كان خيرا
لابنتك أن تضرب بحبها عرض الحائط ، وأن تنتظر حتى تتزوج رجلا
محترما .

وأطرقت المرأة ، ورأيتها تكرر قولى فى شيء من شرود الذهن :

- تضرب بحبها عرض الحائط ، وتنتظر حتى تتزوج رجلا
محترما !! تماما كما فعلت .. لا .. لا يا سيدي .. لا يلدغ المؤمن
من جحر مرتين .

وصممت برهة ثم بدأت تروى كيف لدغ « المؤمن » من الجحر
أول مرة :

- كان ذلك منذ عشرين عاما وقد جلس قبالتى تماما كما تجلس
الآن . وأخذ يقول لى « ان لكل انسان حلمه الذى يرغب فى تحقيقه ،
ولكن ليس لكل انسان العزم الذى يستطيع به أن يحقق هذا الحلم ،
وان أسعد الناس رجل وهب له الله العزم فاستطاع أن يجعل من
أحلامه حقائق ، وأنى أحلم بأن أكون ممثلا ناجحا .. ولا بد أن
أكونه » .

وأجبتة بشيء من الحنق .

- ليس هناك على وجه الأرض من يستطيع أن يقنعنى بأن أكون
زوجة مهرج .

- لا تقولى مهرجا ، بل قولى فيلسوفا ، ان الدنيا ملأى
بالأحزان ، فهل هناك أقدر من امرئ استطاع أن يبسط من الدنيا
بعض أحزانها ، وأن يهيبء للناس من الضحك ما يغسل به هم
قلوبهم ؟ هل تسمين مهرجا ذلك الذى يستطيع السيطرة على نفوسنا
فينتشلها من حلقة الضيق والتبرم ، ليغمرها فى أضواء الفرح
والمرح ؟

- سمه ما شئت !! .. ولكن عليك أن تختار بينى وبين التمثيل ..
أجل .. انى لا أريد قط أن يسألونى أين زوجك ؟ فأقول قد ذهب
ليضحك الناس !!

ولقد اختار التمثيل لا لأن حبه لى لم يكن عميقا جارفا ، بل لأن
حبه للتمثيل كان قد ملك عليه حواسه وسيطر على جوارحه .

اختار أن يكون ممثلاً هزلياً . وهو الذى كان يستطيع أن يتم تعليمه فيصبح موظفاً محترماً كبقية خلق الله ، ولكنه ركب رأسه واندفع فى هوته ، وركبت أنا أيضاً رأسى ، وعزمت على ألا أنزلق معه ، وأن أقطع كل علاقة لى به ، وأن أكبت حبى بين جوانحى حتى يذبل ويموت . فذلك خير لى من أن أكون زوجة مهرج .

لقد كنت أحب فيه فكاهته ومرحه وحلو حديثه . . . أحب قدرته على أن ينتقل بى الى جو لا يمكن أن تحيا فيه جراثيم الأسى والحزن . . . وكنت أحب منه صفاء قلبه ونقاء ذهنه ، ولكنى كنت أكره أن تكون تلك هى مهنته فى الحياة . . . وأن يكون ذلك هو مورد رزقه ورزقى . . . كنت لا أتصور قط أن يقف أمام الجماهير ليكون منها موضع الضحك والسخرية .

وهكذا انتزعه منى جنونه بالتمثيل . . . وانتزعتنى منه أنفتى وكبريائى . . . فافترقنا وبنفسينا لوعة استطاع كل منا أن يخفيها فى صدره . . . وسار فى طريقه . . . وسرت فى طريقى .

ولقد أنكره أهله كما أنكرته . . . واندفع فى طريقه الشائك المظلم ، ليس له نبراس سوى قوة عزيمته واقتناعه بأنه فيلسوف وليس مهرجاً . . . وأنه يقوم بخير دور يمكن أن يقوم به انسان . وهو ازالة الهموم وتبديد الأحزان .

وسرت أنا فى طريقى ، قانعة راضية فى الظاهر . . . فلقد استطعت أن أخفى من نفسى كل مظاهر الأسى واللوعة والخيبة فى الحب . اللهم الا فى لحظات متباعدة كنت أخلو فيها ألى نفسى فتنكأ الذكرى جرحى وتدمى قلبى .

وتزوجت زوجاً لا أرى فتاة يمكنها أن تطمع فى خير منه ان كانت خالية القلب . . . فلقد كان حسن الخلق ، مقبول المظهر ، واسع الثراء ،

واظن هذد خير من صفات يود العقل أن تتوافر فى الزواج ٠٠ العقل
٠٠ لا القلب ٠٠ لأننى كنت دائما أحاول أن أسحق قلبى ٠٠ وأجعل
عقلى مسيطرا على نفسى ٠

واستمر العقل مسيطرا والقلب مكبوتا وأنا يخيل الى أننى قد
انتصرت نهائيا ٠٠ وأن حبى القديم قد عفا وعفت آثاره ٠٠ حتى
كان ذات يرم دعائى زوجى الى الذهاب الى أحد المسارح يقول ان
به مسرحية كوميدية جديدة وان بطلها هو ممثل كوميدى حديث
الظهور ، ولكن من شاهدوه يقولون عنه انه عبقرى ارتفع بالتمثيل
الكوميدى من مرتبة التهريج الى مرتبة الفلسفة . وانه فيلسوف
وليس بمهرج ٠

وقبل أن يقول اسمه كنت أعلم سلفا أنه سينطق باسم صاحبى ٠٠
فما كنت أظن هناك عبقرىا سواه ٠٠ ولم يخطئ حدسى ٠٠ فقد كان
هو ٠٠ وأحسست برجفة عندما سمعت اسمه واعترتنى اذ ذاك
هزة ٠

ولو كانت لى الخيرة فى الذهاب لما ذهبت . فلقد أقنعتنى عقلى
أنه من الخير ألا أذهب ٠٠ فبؤ يخشى أن يستيقظ القلب من طول
سباته ٠٠ ويفيق من طول هجعته . فيثور ويتمرد . فيفلت منه الزمام
وينطلق العنان ٠

وذهبت الى المسرح !!

هل تستطيع يا سيدى أن تفهم مشاعرى فى تلك اللحظات قبيل
رفع الستار ؟ ٠ هل تستطيع أن تسمع دقات قلبى ؟ هل تستطيع أن
تتبع ذهنى وقد شرد منى بين ربوع الماضى يرتشف من كؤوس ذكرياته
ويستعيد لحظاته إلهيئة المتعة ؟ هل تستطيع أن تتبع بصرى وقد
ثبت على الستار وبوده لو استطاع أن ينفذ الى ما وراءه ليتعجل
رؤية حبيب القلب ومنية الروح ؟

تلك اللحظات التي أضحت العقل فيها فى سبات عميق .
أما القلب فقد كان فى يقظة تامة .

ودقت الطرقة ثلاثة دقائق . وأخذ الستار يرتفع رويدا رويدا ،
وبدأت الرواية . وبعد فترة قصيرة ظهر هو على المسرح ، فاستقبلته
ال جماهير بعاصفة من التصفيق .

ومضت فترة من الوقت وأنا لا أفهم ماذا يقول ، فقد كنت فى
اضطراب شديد . وتمنيت لو استطعت أن أنزل الى المسرح فأرتدى
بين ذراعيه ، ثم بدأت أعود الى نفسى وأنصت اليه ، ورأيتة هو هو ،
بخفته ومرحه . ولطفه وظرفه ، ليس هناك أثر للتكلف فى كل
ما يقول ، فكأنه لا يمثل بل كأنه يحيا فى دوره حياة طبيعية ، بفلسفته
الساخرة الهازئة الزاخرة بالفكاهة .

ووقع بصره على فجأة ، والتقت عيوننا وعراه اضطراب لفترة
قصيرة ، ولكنه استعاد نفسه . وازدادت اجادته وبدا لى أن وجودى
قد أسعده وملاه ثقة ، وغمرتني نشوة ، وخيل الى كأن المكان قد
خلا الا منى ومنه .

وانتهت الرواية أخيرا وأحسست بانتهاؤها أن مقاومتي قد انهارت
تماما ، فقد عاودتني قديم حبي كأعنف ما يكون . ، وأحسست بالندم
على انسياقى وراء سخافات العقل ، وعلى تمسكى بتقاهات الأنفة
والكبرياء ، وعلى تسرعى بالزواج . ولم أعد أتمنى شيئا الا أن
أطلق من زوجى الحاضر الذى يجلس بجوارى ، والذى لم أحس له
وجودا طوال الساعات الثلاث الماضية ، لأرتدى تحت قدمى صاحبى
حتى نهاية العمر . وليقل عنى الناس زوجة مهرج وليقولوا عنى حتى
زوجة لص أو شحاذ . فماذا يهمنى مما يقول الناس ، ما دمت أنا
ناعمة بجواره ؟

ورغم كل ما طاف برأسى من أفكار ورغبات . فانى لم أمك الا ان

أعود ٠٠ أعود مع زوجي الى الدار في هدوء وسكون ، دون أن يلحظ
أثرا لتلك الثورة التي تعتمل في نفسي ٠٠ اللهم الا تلك الوجوم الذي
اعترانى والذي اعتذرت عنه بصداع ألم بي

وكما نكأت رؤيته جرحى فقد نكأت رؤيتي جرحه ، وكانت النتيجة
الطبيعية لذلك أن يحاول كلانا أن يلتقى بالآخر ، ولم يكن ذلك بالأمر
العسير ، وتم اللقاء .

التقينا ٠٠ وكأنا نصفان لانسان واحد ٠٠ أبعد بينهما الدم
حيننا ٠٠ فكان كل منهما نصف ميت ولما أعيد أحدهما الى الآخر
جاشت فيهما الحياة ، وردت الروح .

قلت انى نادمة ، وانى على استعداد لا لى أصبح زوجة مهرج
فقط ، بل على استعداد لأن أسرح « نشحت ، سويا ، وقال انه نادم ،
رغم ما أحرزه من مجد وما بلغه من نجاح ، لأنه ما شعر قط بطعم
المجد ولذة الانتصار ٠٠ فما قيمة انتصار المرء اذا لم يستطع أن
يهدى ثمرة انتصاره الى من يحب ؟

وتناجينا ، وتباكينا ، وافترقنا ، والتقينا مرة وثانية وثالثة
ورابعة ، وفى كل مرة يلج بنا الشوق وتستعر اللهفة
وحاولنا أن نتدبر أمرنا ، ولكن المشكلة كانت عسيرة فلقد كنت
زوجة ٠٠ وكنت حاملا ٠٠ وأكثر من هذا كان هو الآخر زوجا ، فلقد
وجد من سواى من رضيت بأن تكون زوجة مهرج ، وكانت هى
الأخرى حاملا

أجل يا سيدى ٠٠ لم تكن المسألة من السهولة بحيث يقبل أحدنا
على الآخر لمجرد رغبته فى ذلك ، فقد كان وراء كل منا عبء ثقيل ٠٠
ولم يكن الأمر يقتصر على زوجي وزوجته ، بل على ولدينا المنتظرين .
كيف أطلب من زوجي الفراق ، وأنا أحمل ابنه فى أحشائى ،
وكيف يترك هو زوجته ومعها حشاشة كبده ؟

لننتظر فما كنا نملك سوى الانتظار ، لننتظر حتى اضع أنا ،
وتضع زوجته ، ولنتدبر بعد ذلك أمرنا .

ووضعت ابنتى ، ومرت بى الأيام وأنا مشغولة بها ، برضاعتها
والعناية بها والسهر عليها ، والتقيت به بعد فراق شهور وعلمت منه
أن امرأته وضعت طفلا . . وأخذ يحدثنى عنه طويلا . . فلقد كان
يحبه كما كنت أحب ابنتى .

ولا شك أن حبنا لطفلينا قد خفف من حدة حبنا بعض الشيء ،
ولكن لم يكن لهذا الحب أن يذهب . . أبدا . . فلقد كان كما هو ،
ولكن اللهفة قد خفت بعض الشيء . . وصرنا أكثر تعقلا وروية ،
ولم يعد بنا ذلك الطيش الذى كان يسهل على كل منا أن يترك زوجته ،
وأصبحنا أكثر قدرة على الصبر والتحمل .

وتشاء الأقدار أن يتوفى الله زوجى ، ورغم حزنى عليه فاننى
شعرت باحساس خفى يدفعنى الى شكر القدر على فعلته فقد خيل
الى أن القدر ينوى أن يحبك قصته وأن يختمها خير خاتمة ، وأحسست
بهاجس ينبئنى أنه لم يبق على الخاتمة غير وفاة زوجته ، وما ذلك
على القدر ببعيد فيخلو لنا الجو بعد ذلك وتصفو الحياة ، ونستمتع
بأطفالنا ، وبالثروة التى تركها لنا زوجى ، وبالمجد الذى أصابه هو .

أجل يا سيدى ، هذا ما كان يجول بخاطرى . . ولست أنكر أنها
كانت هواجس لا تخلو من السوء ، ولكنها كانت تصور كل أمنياتى .

ولكن القدر الأحق سخر منى ، فلم يجد حيك القصة ، وختمها
شر خاتمة . . خاتمة لم تكن تخطر لى قط على بال . . إذ لم تك
تمضى على وفاة زوجى بضعة أسابيع حتى حمل الى الناعون . .
لا نبأ وفاة زوجتى . . بل خبر وفاته هو .

أى صاعقة انقضت على فتركتنى حطاما ؟ . لقد كنت اتوقع كل

شيء الا موته ٠٠ لقد أحسست بالحياة تظلم من حولي وشملتني شعور
بالوحدة والوحشة ٠

ومرت بي الأيام بعد ذلك كئيبة مملة ، وشبت طفلي فملاّت على
فراغ حياتي ولم أعد أبصر في الحياة سواها ٠٠ فهي عزائي وهي
سلوتي !!

هل تستكثر على بعد ذلك أن أتركها تتزوج بمن أحببت ؟

ولم أحب ، وراى الصمت بيننا لحظة ، ثم أردفت قائلة :

– خاصة ٠٠ اذا كان من أحببت هو ابن من أحببت طيلة حياتي ٠٠

ابن الرجل الذى أفسدت حياتي وحياته لأنى رفضت أن أكون زوجة
مهرج !! ٠ أتريد منى بعد ذلك أن أفسد حياة ابنتى وابنه ؟ أتريد أن
الدغ من جحر مرتين !! لا يا سيدى !! لا ٠٠ لقد علمتها عندما يسألها
الزواج أن تقول له نعم ، لأنها لا ترى فيه الا فيلسوفا يبدد عن الدنيا
أحزانها ، ويهيب للناس من الضحك ما يفسل به هم قلوبهم ٠

رجل مضى

حدثني صاحب القصة ، قال :

كنت أراها في بقعة نائية على الشاطئ ، وحيدة لا تفعل شيئاً سوى الحملقة في البحر صامتة ساكنة لا تكاد تكلم أحداً أو يكلمها أحد ، فكأنها هاربة من ضجيج الناس وضوضائهم ، لائذة بالوحدة الموحشة وبالسكون البائد .

ولم أكن أستغرب ميل امرئ إلى العزلة وحنينه إلى الوحدة ، فقد كنت أنا نفسي كثيراً ما أفكر في أن أفر من الناس لاجئاً إلى بقعة نائية خالية ، في روضة أو صحراء أو على شاطئ بحر ، ولكن الذي استغريته من الفتاة وهي زهرة متفتحة أن تهفر إلى الوحدة وتقر من اللهو . . . كأنها عجوز أجهدتها الحياة .

ولست أدري هل كان حب الاستطلاع هو الذي دفعني إلى الاهتمام بها وهل كانت رغبتى في الاقتراب منها والحديث معها ، هي رغبة أي إنسان في اكتشاف أمر غريب لم يتعمده ، أم أن الفتاة نفسها كان بها نوع من السحر والفتنة دفعني إلى أن أجعل منها ما يشغل رأسي ويسيطر على تفكيري .

على أية حال ، لقد وجدتهني أتخذ مجلسي على مقربة منها في

صمت وسكون ، أرقبها خفية متظاهرا بقراءة كتاب فى يدي ، وكنت
أشهدا تعبت فى الرمال بعضا فى يديها ، ثم تسبح يبصرها فى
الأفق البعيد وفى جوف الماء .

ولم أكن أقضى بجوارها سوى فترات قصيرة ، فقد خشيت أن
يثقل عليها وجودي ، وأن أضيع عليها متعتها فى الوحدة .
ومرت الأيام ، فإذا بحنيني الى الفتاة يشتد . . . وبدأت أحس أنها
قد ملكت زمام نفسي ، وشاورت قلبي فى أمرها فأشار على أن أتقدم
اليها وأحدثها ، وبت ليلتي أحضر ما سأقوله لها ، والرد على
ما سوف تقوله لى ، واستيقظت فى الصباح وكأني مقبل على أمر
جلال ، وأخذت أستعيد ما لقتته نفسى طوال الليل .

وتقدمت الى نهاية الشاطئ فلمحتها جالسة فى مكانها . . .
وأحسست قلبي يخفق بشدة واقتربت منها فى خشية وتردد ، وشعرت
بوقع أقدامى فالتفتت الى : وحيثها فأجابت تحيتى بصوت عذب
رقيق . . . ثم استأذنتها فى أن تسمح لى بالجلوس الى جوارها .
فلم تمنع .

ويخثت فى ذهني عما قد حفظته من أقوال فإذا بها قد تبددت ،
وأخذت أنظر اليها من قريب . . . فغمرتنى نشوة عجيبة . . .
كانت مخلوقة رقيقة مرهفة . . . وكان وجهها دقيق التقاطيع ،
صافى البشرة ، وقد غصت شعرها الذهبى فى مؤخرة رأسها وكانت
ترتدى بلوزة بيضاء ديكولتيه ، أبرزت عنقها العاجى ، وجونيللا
قصيرة من الصوف الأحمر وحذاء خفيفا أبيض .
وبدأتها الحديث بعد فترة صمت .:

– أخشى أن أكون قد ضايقتك . . . انى لم استطع أن أقاوم رغبتى
فى الحديث معك . كنت أكتفى من قبل بالجلوس على مقربة منك ،
ولكن الانسان شديد الطمع فاعذرينى .

وضحكت الفتاة قائلة :

- لا أظن هذا طمعا فأى مخلوقين تجمعهما بقعة خالية كهذه ،
لا بد أن ينتهى بهما الأمر الى التعارف .
- أما من ناحيتى أنا فقد تعرفت بك من مدة طويلة ، ويخيل الى أن
هناك تآلفا بين روحينا يجذب كلا منا الى الآخر ، أو هذا على الأقل
هو ما أحس به .

واقترن ثغرها عن ابتسامة عذبة ثم رأيتها تضع يدها اليمنى على
ركبتها ، وبدأ لى أن هذه الحركة منها لم تكن عفوا ، فقد لمحت فى
اصبعها خاتم خطوبة ، ولم أشك ان ذلك فى أنها تقصد أن تلوح لى به .
ولست أنكر أن حركتها هذه قد أصابتنى بخيبة أمل شديدة ،
ولكنى حاولت جهدى ألا أجعل مظهرها يبدو على وجهى ، وتشاغلنت
بالعبث فى الرمال ، وحاولت أن أجسد موضوعا أغير به مجرى
الحديث ، ولاحت فى الأفق سفينة صيد شرعية تظهر وتختفى بين
الأمواج .

وأشرت الى السفينة وقلت فى شيء من الدهش :

- ماذا حدا بالسفينة الى أن تندفع فى عرض البحر هكذا
الاندفاع ؟ ! انى لا أكاد أبصرها .
وأجابت ببساطة :

- لا شك أن الصيد هناك وافر ، لقد تعودت دائما أن أبصرها
تبتعد حتى تختفى عن البصر .
- انظرى ، ها هى ذى قد ظهرت ثانية .
ونظرت الى الأفق ، ثم هزت رأسها قائلة :
- أنا لا أبصرها .

ومددت يدي ، وأشرت بأصبعى فى اتجاه السفينة التى بدت فى
الأفق كأنها نقطة بيضاء ، ثم قلت لها :

- ها هي نى - الا ترىنها ؟
وهزت رأسها بيطة مرة أخرى قائلة :
- لا - لا أراها .
- لقد اختفت ثانية ، دعينا منها .
وران الصمت بيننا برهة ، ثم قالت الفتاة :
- هل تعودت أن تحضر الى هنا كثيرا ؟ !
- منذ ابصرتك .
فضحكت وسالتنى :
- انن فلست تحب المكان نفسه ، أنا لا أوافقك على ذلك ، فان لى
ولما به منذ الصغر .
- كاتى بك قد جاوزت الصغر .. انك لا تزالين طفلة .
- الا ترى منى أكثر من هذا ؟
- بل أرى .
- ماذا !
وأجبتها من أعماق قلبى :
- أرى منك معجزة خارقة !!
وتدرج بنا الحديد دون أن ندرى ، ومر الوقت كأنه البرق ،
ونظرت الى الساعة فى يدى فأتانا بعقريها قد قطع من الزمن ساعتين
فى ثوان معدودات ، وتذكرت أتى على موعد هام ووجدت نفسى
مضطرا الى مفارقتها .
وأحسست أن فراقها امر عسير على ، وخيل الى انى قد ارتبطت
معها برياط وثيق ، ولكنى نهضت فى النهاية وشدت على يدها ،
ثم سالتها :
- هل أراك فى الغد ؟
وهزت رأسها ، وقالت :

- يحتمل ...

وغادرتها وسرت فى طريقى بخطى ثابتة متناقلة وبودى أن أعود إليها ، وقبل أن أنحرف فى الطريق التقت برأسى لآلى عليها نظرة أخيرة ، فرأيتها قد أدارت رأسها وأخذت ترقينى .. ووقفت فى مكانى ورفعت يدي ألوح لها بتحيةة أخيرة .

وأحسست بخيبة أمل ، فانها لم تجب تحيتى .

وعندما أخذت الى نفسى فى المساء وجلست فى شرفة الدار أرقب النجوم ، وكنت أستعيد كل ما حدث ، وأحلل كل ما قالته وكل حركة أتت بها ، ولم تفارق صورتها مخيلتى بشعرها الذهبى ووجهها الرقيق .

لقد أقنعت نفسى بأنها أقبلت على ، وأحاطتنى بجو من الصداقة والثقة ، وأن حديثى معها قد سرها وأنى قد وقعت من نفسها موقعا حسنا ، فقد استطعت أن أغمرها فى جو من المرح والهزور ، وأحسست من تلك بنشوة ومرتعة .

ثم تذكرت بعد ذلك خاتم الخطوبة الذى كان فى يدها ومحاولتها التلويح لى به ، فقلت لنفسى : لعلها لم تقصد شيئا .. أو لعله لم يكن خاتم خطبتها .. ولكن عندما استعادت نفسى صورتها ، عدت فأقنعتها أن الفتاة قصدت بلا شك اشعارى بأنها مخطوبة .

وشرد بى الذهن برهة .. ثم استقر فجأة على أمر جعلنى أحس برجفة تسرى فى بدننى . أمر استطعت أن أستجمعه من عدة صور متتالية مرت بالذهن .

صورة العصا الطويلة فى يدها تعبت بها فى الرمال ، وصورتها أخيرا وهى تتبعنى ببصرها فاذا ما لوحث لها بيدي لم تجب على تحيتى .

وأحسست بالعرق البارد يتصبب على جسدى

كيف غاب عني أن الفتاة لا تبصر؟! .

انها لا شك ضريرة ! .

وشعرت برغبة فى البكاء من أجلها ، وأحسست أن حبى قد
تضاعف . وعصف بى الحنين إليها . . . ووددت لو استطعت أن أقضى
العمر راكما عند قدميها .

وفى اليوم التالى وجدتها فى مكانها ، وكأنما كانت تنتظر قدمى
فقد التفتت الى عندما أحست وقع قدمى وحيثنى فى لهفة ظاهرة ،
وجلست بجوارها وأمسكت يدها فضممتها بين يدى .

وصمت كلانا برهة من الوقت ، وأنا أرمقها وهى تسبح ببصرها
فى الأفق البعيد . . . وخيمت على وجهها سحابة من قلق . . . وبدأ لى
أنها قد أحست أننى أعرف !

وقلت لها هامسا وكأن فى حلقى غصة :

– انى آسف ، عندما أشرت الى السفينة بالأمس لم أكن أعرف . . .
انى لم أعرف حتى خلوت الى نفسى فى جوف الليل واستعدت كل
ما فعلته .

وأجابتنى فى صوت خفيض وهى ما زالت شاردة :
– لقد أخطأت ، وكان يجب على أن أنبهك . ولكن كان هناك شيء
فى صوتك لم أسمعه منذ زمن بعيد ولم أرد أن أخبرك فأحرم نفسى
متعة . هل فهمت ؟

– وهل لا يزال هذا الشيء فى صوتى أم ترينه قد ضاع ؟

فأجابت فى صوت ملؤه الحزن :

– لا . . . لا . . . انه لا يزال كما هو .

وقلت لها :

- أنت اليوم والأمس عندي سواء ، لم يختلف الأمر قيد أنملة ٠٠
هل تصدقيني ؟
- لا ٠٠ هذا أمر يسهل عليك قوله الآن ٠٠ اما بعد ذلك فلا .
ومددت يدي فلمست حاتم الخطوية في يدها وسألتها :
– ما حديث هذا ؟
- ليس هناك كثير يقال ، لقد خطبت ، ثم أصبت بما أصبت به ،
وسأرحل بعد أيام مع والدتي ٠٠ لاجراء عملية قد تنجح وقد لا تنجح ،
فاذا نجحت فستتزوج .
- واذا لم تنجح ، هل سيتركك ؟
– لا أظن أن هناك من يرغب على زواج فتاة ضريرة ؟
وأمسكت بيديها ودفنت فيهما وجهي ، ولم أستطع أن أمنع سيل
الدمع الذي انهمر من عيني ، وقلت لها في صوت مكبوت :
– اذا لم تنجح فستتزوجيني ، وسأجبرك على ذلك .
وساد الصمت بيننا برهة ورأيتها قد استغرقت في التفكير ثم
همست الى قائلة :
– دعنا من هذه الأحاديث الحمقاء .
- لست أحقق . هلا تستطيعين أن تحسى ايماني بأني أريدك كما
أنت ٠٠ ليس هناك أقل قارق بينك مبصرة ٠٠ وضريرة ، اللهم الا
اذا كنت أنت لا تريدينني ، ولا تؤمنين بي ، أنا لست قبيحا ، وأؤكد
لك أن أمامي مستقبلا زاهرا ، وأستطيع أن أهيبء لك عيشا رغدا .
وأحسست أصابعها تتحسس وجهي وشعرت من ذلك برعدة سرت
في جسدي ، ثم سمعتها تتمم قائلة :
– تماما كما أتخيلك - - نفس الأنف ، ونفس الشفتين ، لا تختلف
في شيء عما رسمت لك في ذهني .
وصممت برهة ندت عنها تنهيدة حارة وأرذفت قائلة :

– أية متعة وهبتها لى بالأمس .. عندما جلست الى وعلمت أنك لا تعرف؟! لقد منحنتى شيئاً ظننت أننى فقدته الى الأبد ولا أظننى أستطيع الحصول عليه ثانية .

– لا تقولى هذا . انك تخافين العطف وتخشين الشفقة ، وأؤكد لك أنى لا أحس لك شفقة ولا عطفاً . ان ما أحسه هو الحب ، الحب العميق الفياض . أتفهمين ما هو الحب ؟ انى أحبك الى الحد الذى أتمنى فيه ألا تنجح العملية . وأن تبقى كما أنت .. حتى تكونى لى وحدى ، فهل لا تزالين تظنين أن ما بى شفقة وعطفاً ؟ !

ولم تجب فقد عصفت بها نوبة من البكاء ورئدت لنفسى ما قلت ، فأحسست قسوته وشعرت بخجل شديد وأخذت أريت على يدها وقلت لها استغفرها :

– انى آسف .. انا لا أقصد ما قلت .. لقد دفعنى اليه فرط حبى لك .

ورفعت الى عينيها المغرورقتين وهمست قائلة :

– علام الأسف .. ما قال لى انسان خيراً مما قلت ، فانى أعرف لم قلته .

– ولكنها أنانية منى ، وأنا لست أنانيا الى هذا الحد . ثقى أنى سادعو الله ليل نهار أن يعيد اليك بصرى ، فإذا لم يستجب دعائى ، فانك لى وسأرغمك على زواجى .

– لقد عدنا الى الحماقة مرة أخرى !

ثم حاولت أن تغير مجرى الحديث بقولها :

– ألا ترى سفينة الصيد تظهر وتختفى ؟ !

ورفعت بصرى الى الأفق فرأيت السفينة تلوح فى أقصاه فللت ضاحكا :

– أجل .. انى أبصرها أمامى كأنها نقطة بيضاء .

- خبرنى ماذا تبصر أيضا • يخيّل لى أن الشمس مشرقة ساطعة ،
فانى أشعر بحرارتها ، وأحس أن البحر هادئ ، فانى لا أكاد أسمع
صوت الموج ، وأشعر بخفة النسيم على وجهى • انى لا أزال أستطيع
التمييز بين الظلمة والضياء •• وفى ذاكرتى كثير من جمال المكان ،
وأبصر أشياء كثيرة بعين الوهم والخيال ، خبرنى عما ترى ؟
ولاحت فى ذهنى فكرة عجيبة •• وساءلت نفسى لم لا أحاول أن
أعوضها عن ضوء عينيها ؟ ولم لا أكون أنا عينيها ؟ وارتحت لهذا
الخاطر وأنعمت البصر فيما حولى ، وبدأت أتحدث :

- انى أبصر نفس ما تحسّين •• البحر الواسع المنبسط ،
يترجرج فيه الموج ، وتتهدى الموجة فيه وراء الموجة ، حتى تصل هنا
الى رمال الشاطئ فتتكسر وتنبسط •• وتطويها الرمال فتقنى كأن
لم تكن ، وتتبعها أخرى وغيرها ، وهو يقذف والرمال تطوى ، فلا هو
سئم القذف ولا هى ملت الطى ، وحولنا قد انبسطت الرمال لا أكاد
أبصر فيها سوى آثار أقدامنا معا •

- ماذا تبصر فى أقصى اليمين ؟

- بروز فى الشاطئ عند سراى المنتزه قد تكاثفت فيه الأشجار •

- هل ما زالت هناك المئذنة تعلو من بين الأشجار ؟

- أجل •• أجل •• ما زالت كما هى •

- ومجموعة النخيل المتناثرة ؟

- كما هى •

- والصخرة ؟

- ما زال الناس يعقلون صهوتها مرجحين عابثين ، ومركب خفر

السواحل كما هو يقفز الصبية من فوقه الى الماء والحارس ما زال

نقح فى صفارته لينهاهم عنه !! .

ثم رأيتها تستغرق فى الصنمت ، وبدا أن ذهنها قد شرد فقلت لها

– فيم تفكرين ؟

وهزت رأسها ببطء وأجابت هامسة :

– كنت أتمنى لو التقينا قبل أن يحدث لى ما حدث .. لقد ملأتنى بالأمل وأعدت الى نفسى ما تبده من الايمان .. واضأت لى فى حناياك بارقة تهدينى سواء السبيل ، فأشرقت الدنيا من حولى بعد ظلمة ، لقد كنت أحس انهيارا تاما فجعلتنى أتمالك وأتماسك .. اننى أستطيع الآن أن أقف على قدمى .. وأن أوصل السير فى الحياة .. لقد علمتنى أن الانسان قد يغنيه عن ضوء عينيه ضوء قلبه . وافترقنا بعد ذلك ، ولأول مرة عرفت أن السهد قد يصيب الانسان من فرط سعادته كما يصيبه من فرط شقائه !
ورحلت بعد ذلك قلم أستطع لقياما ، ولم يكن أمامى سوى الصبر والانتظار .

ماذا كنت أنتظر ؟ . وماذا كنت أخاف وأخشى ؟ اننى بشر .. بشر يحب .. لا بقلبه فقط .. بل بكل ذرة فى جسده .. انى أحس انها منى ، فهى فى رأسى ، وفى قلبى وفى جسدى .. لقد فارقتنى ، وما فارقتنى ، فانى أراها فى كل ما أبصر ، وأنصت اليها فى كل ما أسمع ، وأحس بها فى كل ما أفعل .. سامحنى الله .. هل أجسر فأقول اننى كنت ادعو الله أن يشفيها وفى قرارة نفسى كنت أتمنى الا يفعل ؟ هل أجسر أن أقول اننى .. انا الذى كنت أتمنى لو أستطيع أن اهب لها ضوء عينى ، كنت أخشى أن يرد اليها بصرها فأفقدما !
وطال بى الانتظار وانا لا أفعل شيئا سوى الجلوس فى المكان الذى كانت تجلس فيه ، كلما مضى الوقت زادت خشيتى .. حتى أقبلت ذات يوم فلمحتها فى مكانها .

وعرقتى اذ ذاك هزة .. وانتفضت من قمة رأسى الى اخمص قدمى ، وتلاحقت أنفاسى ، واشتدت خفقات قلبى وأخذت أقترب منها .

هل شقيت ؟ ! لقد دعوت الله طويلا أن يشفيها . . . ليت الدعاء
لا يستجاب .

وكانت مولية وجهها شطر البحر ولحت في يدها العصا تعبت
بها في الرمال وكان فيها الجواب .

سامحني الله ، وشكرا لله ، الذي لم يستجب دعائي .

واحست بوقع قدمي ، فالتقت الي ولحت في وجهها ابتسامتها
الحلوة وجلست بجوارها وكأننا لم نفترق لحظة .

وأمسكت بيدها الصغيرة في يدي فوجدتها قد خلت من خاتم
الخطوبة فغمرني احساس من السعادة وقلت لها :

– سننزوج في أقرب فرصة . كم كنت أخشى الا تعودى . . . وكم
كنت حائرا في تمنياتي ، بين أن تشفى والا تشفى ؟ كنت أتمنى أن
تشفى والا تشفى ؟ كنت أتمنى أن تشفى حتى يعود اليك ضوء عينيك ،
وأتمنى الا تشفى حتى تعودى أنت الي ؟ .

وأطرقت ، ثم أجابت هامسة :

– لم يكن هناك داع لهذه الحيرة . . . فقد كنت عائدة عائدة . . .
شقيت أم لم أشف .

– كيف ؟ !

– لقد ذهبت اليه قبل أن أذهب الي المستشفى ، وأعطيته خاتمه ،
فقد ملكت أنت مشاعري وملأت نفسي . لقد قلت لي انك لا ترى هناك
فرقا بيني مبصرة وبينى ضريرة فعزمت على أن أكون لك مبصرة ،
أو ضريرة .

ورفعت يدها الي فمى فمسستها بشفتي وهمست قائلا :

– أرجو ألا يكون قد أحزتك فشل العملية ؟

– ما أحسست من فشلها قط بأي حزن ولا خيبة . . . لقد كانت
مجرد خيط واه تعلقت به ، حتى لا أهوى . . . وكانت مجرد أمل براق

تعلمت به ، حتى لا أقضى من اليأس .. ما حاجتى اليه الآن وقد تبدد
اليأس واستبدلت بخيط الأمل الراهي حبلاً متيناً من حبك وإيمانك ؟
وأمسكت بيدها وضممتها الى صدرى وهمست فى أذنها :
- نستطيع أن نكون شركاء فى ضوء عينى ولو خبا هذا الضوء
عندى .. فلا خوف علينا . ان القلوب المضيئة ، لا يمكن أن يتعثر
أصحابها فى ظلمات الحياة .

رجل خاطئ

حدثني الصبي وقال :

ـ وأخيرا ، وجدت أبا !

انى أحس بالهدوء والراحة ٠٠ لم يعد هناك ما يبعثنى على ان
اسير بين الناس كسير النفس ، مهبط الجناح ٠

لم أصبح بلا أب ٠٠ فلقد وجدت أبا ٠

هل تدري ما معنى أن يكون الانسان بلا أب ؟ انى لا أقصد أن يكون
يتيما فاليتيم له أب قد مات . وموت الآباء لا يشين بنيتهم ، فقد كانوا
أحياء يوما ما . فلما ماتوا خلفوا لأبنائهم اسمهم وتكرامهم ، أما
الذى يضير الابن فهو ألا يعرف له أبا قط ، ويجز فى نفسه أن يسأل :
أنت ابن من ؟ فلا يعرف الا أنه ابن أمه ٠

أنا ابن حرام يا سيدى ٠٠ أو هكذا يقولون عنى ٠٠ ولست أدري
لقولهم معنى ، ولكنى أعرف أنهم يقولونه لى على سبيل التحقير
والازدراء ٠٠ وأنهم يسبوننى به ٠٠ ولست أدري لم يسبوننى ، ولم
يقولون عنى ابن حرام ٠٠ ان كل ما فعلته هو انى وجدت فى هذه
الحياة ٠٠ كائى كائن حى ضئيل حقير ٠

لقد وجدت نفسى موجودا فعشت . فما تنبى حتى يسبوني
وينعتونى بابن الحرام ؟ ٠ أما كان خيرا أن يفتوا الرجل الخاطيء
يابى الحرام والمرأة الضالة بأمر الحرام ٠٠ بدلا من أن يصبوا مقتهم
على المسكين الذى لم يرتكب اثما قيسخروا منه فى كل لحظة ويقولوا
انه ابن حرام ؟

انى لأنكر انى منذ أدركت الحياة ٠٠ وأنا موضع ازدياء
وسخرية ، ولست أدرى كيف كان اولاد الحلال يعرفون ائنى ابن
الحرام ٠٠ لقد كان امرى يسرى بينهم كالبرق ٠٠ ان الناس أشرار
يا سيدى ، جيلوا على حب الشر والأذى ، وانطوت نفوسهم على
الخبث والضعة ٠ لشد ما أمقتهم فانى لم اصادف منهم عطا ولم الق
حديا ٠

أذكر كيف ذهبت الى الكتاب لأول مرة وقد أخذتنى امى بيدها
وأنا أهول بجوارها ٠٠ هى بملاءة اللف السوداء ٠٠ وأنا بالجلباب
والحذاء والطريوش اللذين ارتديتهما يوم ذاك فقط ٠

تركنا حجرتنا بعد أن أغلقت أمى الباب بالمفتاح وبعد أن أوصت
جارتنا أن « تأخذ بالها » من الحجرة حتى تعود ، فقد كانت المرة
الأولى التى تغيب فيها عن الحجرة لأنها كانت دائما تتركنى ألهو
أمام الباب عندما تذهب الى دور عملائها لتقوم بحياكة ثيابهم ،
أو لتبيعهم بعض ما تتجر به من مناديل وحلى ٠

وعبرنا شارع زين العابدين سائرين فى شارع سليم حيث كنا
نقطن فى نهايته من ناحية جبل الجيوشى حتى وصلنا الى شارع
النواوى والوقت ما يزال مبكرا والباعة لما يفتحوا حوانيتهم بعد ،
اللهم الا ذلك الرجل صاحب البليلة والقول الذى اتخذ مكانه على
ناصية شارع ممتاز فقد كان منهمكا فى العمل وقد اجتمع حوله
الغللمان والصبية وأخذ يقلب البليلة بكبشسته الخشبية ، واختفت

معالم وجهه وراء سحب البخار المتصاعدة من القروانة ، وبجوارها
بدت قدرة الفول النحاسية الحمراء اللامعة متكئة على جانبها •
مررنا بالرجل وتجاوزناه وما زالت ترن في أذني أصوات الصبية
الملتقين حوله صائحين : « بمليم بليله يا عم فضل » ، « بتعريفه فول
وزيت » ، « بنكله بليله ، ويتلاته مليم فول » •

وكم كان بودي لو وقفنا عنده برهة فتناولنا شيئا من البليلة ولكن
أمي كانت ممعنة في السير ، ولم أحاول أن أطلب منها الوقوف فقد
علمتني التجارب الا أطلب شيئا ، وأن أقنع بما أعطى •

وصلنا أخيرا أمام باب الكتاب أو باب المدرسة •• مدرسة
الاجتهاد الأولية ، ووقفنا برهة حتى أصلحت أمي ملاءتها وبرقعها ،
ثم دلفنا الى الداخل •

كان يملكني وقتذاك شعور مزيج من الرهبة والخشية ، رهبة
الاقدام على شيء جديد مجهول ، وخشية البقاء وحيدا في المدرسة ،
فقد علمت أن أمي ستتركني وتذهب •• وأنا أخشى الناس كثيرا
وأترجس منهم خيفة دائما •

كان باب المدرسة يؤدي الى ممر ضيق مظلم قد قامت على جانب
منه حجرة الناظر ، وبدا في نهاية الممر فناء رحب تفرق فيه بعض
الصبية يلهون ويعدون ، وبعث منظرهم في نفسي شيئا من العزاء
والطمأنينة فقد أيقنت أنني بعد لحظات سأندمج فيهم ، والهو كما
يلهون •

وبعد لحظة أقبل كهل أسود بالي الثياب ، عارى القدمين ، علمت
فيما بعد أنه عم شمط فراش المدرسة ، وحدجنا في ضيق وتبرم وسأل
أمي في حنق :

– نعم ؟

ولم أدر سر هذا العداء الذي لاقانا الرجل به ، ولكني أرجعته الى

طبيعة السوء والشر الكامنة فى نفوس الناس •

وأجابت أمى فى صوت رقيق :

– حضرة الناظر موجود ؟

ولم يجب الزجل بل دفع بقدمه الباب فانفتح على مصراعيه وقال :

– ادخلى •• أهو مرزى قدامك •

ودخلنا على الناظر ، الشيخ عبد الرسول ، وأقبلت عليه أمى تحييه باحترام ، ووقفت أنا بباب الحجرة مطأطء الرأس فى خشية ورهبة ، أقلب البصر بين آونة وأخرى ، فاحصا بعينى الرجل والمكان • رأيت الرجل متربعا على أريكة قدرة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء حمراء ، وأخذ يحملق بحفرتى عينيه القارعتين ، ويتنخم ، ويسعل ، ويصق ، ويمسح أنفه بظهر يده ، وفى اليد الأخرى مسبحة يحرك حباتها بين أصابعه •

ورأيت والدتى تقبل يد الرجل ، ثم تجلس على مقعد خشبى أمامه ، ولا أدرى ما دار بينهما من حديث ، فقد شغلنى عنهما مراقبة حرصار مقلوب فى ركن الغرفة وحوله النمل يجره الى جحر فى أرضها ، ولم أنتبه الا ووالدتى تفتح منديلها فتخرج منه بعض النقود تقدمها للشيخ ، ثم تنهض مودعة •

وسمعت الشيخ يصيح بشمط ، ويأمره بأخذى الى الداخل •• وسحبنى الكهل الأسود من يدي ودفعنى الى الفناء فوقفت فى وسطه حائرا مشدوها •

مضت بى الأيام الأولى فى مدرسة الاجتهاد ، وأنا تائه ضال •• غرق •• لا اكاد أفهم شيئا مما حولى •• أحمل لوح الصفيح تحت ابطى فى الذهب والاياب ، وأدخل الفصل ، فأجلس بين الصبية شارد الذهن غارب البال ، واتضح لى أن الشيخ عبد الرسول هو كل ما فى المدرسة من مدرسين وأساتذة ، وأنه اذا ما طرأ عليه طارئ

حل شمط محله وتلقى العيب عنه ، فقام بكل أعمال النظارة والتدريس الى جانب أعماله الأصلية من فراشة وكنس ورش وتوريد أطعمة .

أجل يا سيدى توريد الأطعمة ، فقد كان عم شمط هو متعهد الطعام فى المدرسة ، فلا تكاد تحل فترة الظهر حتى نجده قد هل بوجهه الأسود الكالج حاملا فى يديه صفيحتين احدهما قد حوت مية لفت يعوم على سطحها بعض قطع اللفت ، والثانية حوت كمية لا بأس بها من الفول النابت ، ويجلس الرجل فى ركن من أركان الفناء حيث يكون قد جهز الأرغفة وقطعها شققا ، ووضع فى جفنة بضعة أطباق سود فلا تكاد نبصره حتى تندفع اليه مخرجين ما فى جيوبنا من ملايم لنبتاع بها شقة وفول ، ومية لفت .

ومضت فترة من الزمن وأنا منطو على نفسى حتى بدأت اطمنن الى المدرسة والى الرفاق . . . وأخذت أندمج معهم وأشاركهم فى لهوهم . . . وبدأت أفهم ما يلقنه ايانا الشيخ عبد الرسول من دروس فى الكتابة والحساب والقرآن . . . وكان الشيخ الضرير يثير الذعر فى نفوسنا بخيرزرائته التى ينهال بها علينا دون أن يأبه أين تصيينا ، كنت دائما أخشى الرجل وأناى بنفسى عنه متقيا شره ، حتى حدث ذات مرة فى إحدى الفترات التى كان يغيب فيها عن المدرسة ووكل أمرها وأمرنا الى شمط أن ضحكت مع أحد الصبية فظننى الرجل أهنئك عليه ، فما كاد الشيخ يحضر الى المدرسة حتى شكا اليه أمرى ، فنادانى الشيخ ، واقتربت منه خائفا وجلا . . . ومد الرجل يده الخالية فقبض بها على عنقى ثم صرخ فى وجهى قائلا :

— ماذا يضحك يابن العاهرة . . . لو كان لك أب لعرف كيف

يؤدبك !! .

وارتفعت يده بالعصى . ثم هوت على وجهى ، ورأسى وأنتنى

حتى سالت الدماء ، فاغرقت جليابى .
وأخيرا تركنى وأنا أوشك أن أفقد وعيى .
وما ان أفقت من هول الضرب حتى شرد ذهنى فى أشياء يبعث
التفكير فيها بعض العزاء فى نفسى حتى قطع على خيالى اقبال
الصبية .

ونظرت اليهم فرأيت على وجوههم علامات الشعاعة كأن مصابى
قد اثلج صدورهم .
وسالنى أحدهم :
- أحقيقة أنك بلا أب ، كما قال سيدنا الشيخ ؟
وأطرقت ، ثم أجبتة ببساطة :
- نعم .
- وأين أبوك ؟
وتريئت برهة قبل أن أجيب :
- لا أعرف .

واندفع الصبية يقهقون ويتصايحون ، ووصلت الى اننى
اصواتهم المختلطة « هذا الأبله لا يعرف أين أبوه » ! . . .
وفى ذلك اليوم عدت الى الدار . . . كسير القلب . . . داعم العينين ،
وقد طغت أوجاع نفسى على أوجاع جسدى . . . فانا وحدى دون سائز
الصبية بلا أب . . . ولطالما رأيت جارنا عم عبد الرحيم الكواء يعود
الى داره حاملا فى يده قرطاس الفسكهة ، ثم يرفع ابنه بين يديه
ويحوطه بذراعيه الطويلتين ، ويقمر وجهه بالقبلات . لو كان لى
أب كهم عبد الرحيم لشكوت اليه ما حل بى من عصا الشيخ ولعرف
كيف يثار لى منه !

وكان أول ما فهمت به عنند ما لاقيت أمى ، هو سؤالى اياها :
- أين أبى ؟

ورفعت حاجبيها فى دهشة ثم سألتنى :

– لم تسأل ؟

– ان الصبية قد سالونى قلم اعرف بم اجيب •

ومدت امى ذراعيها فاحتضنتنى ، واجابت قائلة :

– عندما يسألونك مرة اخرى •• قل لهم انه ميت •

وفى اليوم التالى وجدت الصبية فى الفناء •• فاقتربت من واحد

منهم اعرف ان اياه قد توفى ، ووقفت بجواره وصحت :

– لقد عرفت اين ابي •• ان ابي موجود مع ابيه •

ووضعت يدي فى يد الصبى •• ولكنى وجدته يبتعد عنى فى

نفور وازدراء وصاح بى :

– ان ابنى المعلم على العتر مات قتيلًا فى معركة فى احدى الزقات

ولكن من يكون ابوك انت ! ؟ وكيف مات •• ؟

وارتج على •• ولم اعرف كيف اجيب •• واندفع من بين الصبية

واحد يصيح بى :

– يا ابن العاهرة •• ان اباك لم يميت •• ولقد سألت سيدنا

فاجاب انك ابن حرام •

ويكيت •• فما كان امامى سوى البكاء •

انى اريد ابا اسكت به هؤلاء السفلة الأوغاد •

ومنذ ذلك اليوم اضحيت اضحوكة الصبية •• وتعودت منهم

السب والضرب ، وعلمت نفسى على الأذى والمكروه •• حتى كان

ذات يوم طفق فيه الكيل •• وكنا اذ ذاك خارجين من المدرسة قبيل

العصر ، وقد سرنا ثلة من الصبية •• واخذوا كعادتهم يسلمون

انفسهم بقذفى بالفاظ السباب •• واقترب منى احدهم واخطف

طربوشى وقذف به الى الأرض الوحلة ، ولم اتمالك نفسى فلطمته

على وجهه •

ولم أشعر بنفسى بعدها الا وأنا ملقى فى الطين ، والصبية ينهالون على بقبضاتهم يريدون القضاء على .. لولا أن سمعت صوتا خشنا ينهرهم .. ثم رأيتهم ينفضون من حولى متفرقين ، وأحسست بيدين قويتين ترفعاننى من الأوحال ويربتان برقق على ظهرى ، ورأيت وجها يرمقنى فى عطف ويسألنى هل أصابنى أذى ؟

لم يكن الصوت غريبا على .. فقد كان صوت عم فضل الذى سحبنى من يدى ، وغسل لى وجهى . وأزال الطين عن ثيابى ، وأمسك بسكين البسيبوسة واقتطع من الصينية قطعة كبيرة قدمها لى .. فهزرت رأسى بأسف وقلت فى نلة :

– ليس معى نقود .

فابتسم الرجل وقال انه لا يريد نقودا .

لست أدرى يا سيدى كيف أصف لك الشعور الذى انتابنى وقتذاك ، بين كل تلك القلوب المتحجرة ، وفى تلك الدياجير الحالكة من القسوة والفظاعة ، قد لاحت لى بارقة حنان ، وتفجر نهر عطف ، ونبع حب ، وأمسكت بقطعة البسيبوسة ، وغرست فى عجيتها اللينة المعسولة اسنانى ، وسرعان ما أجهزت عليها .

ونظر الى الرجل فى عطف وسألنى عما دفع بالصبية الى ضربى ، فقصصت عليه كل شىء .. وشكوت له هم نفسى .

وانتهيت من شكواى ، ولم أستطع أن أغالب الدمع الذى انهمر من عينى وقلت بصوت خفيض :

– ان شئ ما فى الأمر أنتى لا أستطيع أن أقول لهم من يكون أبى ؟

وحدق الرجل برهة ، ثم قال فى مرارة :

– عندما يسألونك قل لهم ان عم فضل أبى . سامع ؟

وأشرت برأسى علامة الموافقة .. وأخذت أتأمل الرجل بجسده

الضخم ، وشاربه الفتول ، وطاقيته الشبيكة ، وأحسست بالغبطة
تملاً نفسى .

هذا والله خير أب !! .. اننى أستطيع أن أفحم به الصبية اذا
ما سألونى مرة أخرى .

ومرت بضعة أيام لم يحاول أحد الصبية أن يهاجمنى فيها وكنت
خلالها قد وجدت من عم فضل نعم الأب .

وفى ذات يوم تحرش بى أحد الصبية .. ولطمنى لكمة شديدة ..
وكان الصبى أكبر منى جسماً .. فنظرت اليه وقلت له والبكاء
ينخنتنى :

– سأخبر أبى حتى يعرف كيف يؤدبك .

وانفجر الصبية مقهقهين ، وصاح بى الصبى ساخراً :

– أبوك .. أنت لك أب ؟

– أجل .. أبى عم فضل ، وسيعرف كيف يؤدبكم جميعاً .

وازداد ضحك الصبية ، وأخذوا يتصايحون من حولى مناخرين
وعاد الصبى يقول :

– أبوك عم فضل ؟ .. والله لو سمعك تقول هذا لحطم رأسك ..

هل تستطيع أن تحضره غداً لتأديبى .. أيها الكذاب المنافق ؟ .

وصاح صبى آخر :

– لعله قد أضحى رفيق أمه !

وفى ذلك اليوم لم أذهب الى عم فضل ، ولكن الرجل لمحنى فعدا

ورائى ، وسألنى عما بى فقصصت عليه ما حدث .

وكفكفت دمعى ، وربت على ظهرى ، وسألنى أن أنتظر برهة .

وبعد لحظة خلع فوطته وأمسك بيدي وعدنا سوياً الى البيت .

ولست أدرى ما دار بينه وبين أمى .. ولكن رأيت أمى وقد انهمر

دمعها .. وطأطأت رأسها .. وربت الرجل عليها فى رفق وحنان ،

ثم غادرنا ، وعاد بعد برهة ، ومعه ثلاثة رجال أحدهم شيخ معمم
ومعه دفتر كبير .

وفى تلك الليلة انتقلت أُمى الى بيت عم فضل . وفى الصباح
اصطحبني الى المدرسة ، ودفع باب الناظر بعصاه وضرب الأرض
بها ضربة جعلت الشيخ الضرير يقفز من مكانه ثم صاح به
- اسمع يا شيخ قرد . هذا الولد ابني . أنا أبوه . . . اذا
لحقته منك أية اهانة أو أذى ، فسأجعل من جثتك النجسة طعاما
للكلاب . . . فاهم ؟

وتركنا الحجرة ، وذهبنا الى الفناء . . . ولحت شمط قد اختبا
فى أحد الفصول . ووقف عم فضل بين الصبية وصاح :
- يا اولاد ! انى أبوه . . . فاذا كان لأحدكم أب خير منى فليحضر
الى عربتى حتى أحطم رأسه .
ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد على اهانتى بكلمة واحدة أو يقول
انتى بلا أب .

★ ★ ★

انتهى الصبى من سرد قصته على . . . وغلبنى التأثر قلم أنبس
بينت شفة . . . وطأطأت رأسى ، وشرد بى الذهن ، فتخيلت عم فضل
كما وصفه الطفل ، فأتقن وصفه . . . فقد كنت أعرف الرجل خير
معرفة .

وأحسست نحوه باكبار واجلال ، ورأيت خيرا أنواع الرجال . . .
تضحية ومروءة ومغفرة . . . فلقد ضحى بكرامته ، وهب نفسه أيا
للطفل الذى لا أب له . . . وتزوج من أمه الخاطئة وغفر لها خطيئتها
من أجل الصبى المسكين .

وبعد بضعة أيام مررت بالرجل ، ووقفت أمامه برهة ، وبعد أن

اعطاني- ما طلبت من البسيوسة .. حدثته عن زواجه من ام الصبي،
ثم شددت على يده وهمست في اذنه :
- انك رجل شهم ، وسيغفر الله لك كما غفرت خطيئة المرأة .
وسيعوضك عما أسديت الى الطفل خير الجزاء .
وتنظر الى في دهشة ، ثم أطرق برأسه وسمعته يتمتم :
- يا سيدي .. غفر الله لنا ولكم .. لم افعل خيرا ، ولم اظهر
شهامة ، ولم اغفر خطيئة .. ان الصبي هو ابني فعلا !

رجل ورسالة

صفق الفؤاد وهفا ، وتغنى وترنم ٠٠ ومسه من نكري صاحبته
سحر جعله من فرط الطرب يرقص ٠

يا للقلب الثمل النشوان ٠٠ الذي تكاد تسمع فى خفقاته رجفة
شوق وصبابة ٠ كل هذا قد فعله به مجرد خيال طاف به ، أو طيف
حام من حوله ؟

بهذه الكلمات بدأنى صاحبي الحديث ، وقد جلسنا نرقب المياه
المتدفقة النائرة وقد تفجرت من نبع بين الصخور ٠ وأخذت تتلمس
طريقها بين الحصى والحجارة ، ثم تلتقى. متجمعة فى مجرى يشق
الأرض فى لين ورفق ٠٠ فينفخ فيها الروح كأنه الشريان يجيش بماء
الحياة ٠٠

٠ كان الوقت أصيلا وقد اصطبغت السماء بحمرة الشفق ، وبدت
قرية « البايطى » فى الواحات البحرية هادئة ساكنة بعد أن أوى
إهلها الى أكواخهم المتواضعة ، التى أحاطت بها النخيلات وأشجار
البرتقال والليمون ٠

ونظرت الى صاحبي ٠٠ فأدهشنى ذلك الشبه العجيب بينه وبين
الينبوع الذى يتفجر منه الماء فقد كان هو الآخر ينبوعا متفجرا

بالخب ، ورأيت كلا منهما قد نبع في صحراء مجدبة فقراء ، لا حياة فيها ولا ماء ولا رواء ٠٠ ولا خضرة ولا نضرة ٠٠ فاذا بالنبت يزكو ٠٠ والطير يشدو ، واذا بالبقعة الجرداء قد صارت وكأنها قطعة من الفردوس ٠

ولم تكن لى قديم معرفة بصاحبى هذا ٠٠ فما أذكر ائى رأيته قبل أن ألتقى به فى هذه الواحة النائية ؛ التى كان يعمل بها طبيبا ، ومع ذلك لم يكد يمضى على تعارفنا يوم أو يومان حتى رأيتنى آنس إليه وأحس بمتعة فى الجلوس معه ، ولذة فى سماع حديثه ٠

ورغم أننى لم أقبل القيام بهذه الرحلة التفتيشية الى الواحات الا على مضض ٠٠ ورغم أننى قد عزمت على الا يطول بقائى فيها الا بالقدر الذى يسمح لى بانجاز عملى على عجل أشد العجل - اذ كنت وقتذاك خاطبا - فقد رأيت الأيام تمر بى وأنا لا أحس بملل من المكان أو رغبة فى الرحيل عنه ٠

أجل ٠٠ لقد أحببت المكان وصاحبى فيه ٠٠ وجذبنى سحر الينبوعين : ينبوع الماء ٠٠ وينبوع الحب ٠٠ فقد كانا يكونان معا شيئا فائقا خلايا ، وكان الواحد منهما متما للأخر ، فما أظن المكان وحده ، أو الفتى وحده ، كان يستطيع أن يفعل بى ما فعلاه بنفسى مجتمعين ٠٠ فيلهيانى عن العودة الى صاحبتى التى ما ظننت أن هناك فى هذا الكون ، ما يستطيع أن يلهينى عنها بعض الوقت مهما بلغ من السحر والفتنة ٠

وأظن القراء على صواب عندما يصمون بالسخف ذلك الذى يدعى أن طبيبا فى واحة ألهاه عن حبيبته أو خطيبته ٠٠ ولكن لو قدر لهم أن يروا - أو استطاعوا أن يتخيلوا - تلك الأشجار الخضراء المتكاثفة التى تبلت منها الثمار المملئة ، وتلك القرية الذهبية وقد

شقها المجرى اللجيني ، أو يستمعوا الى شدى الطير وهمس الغصون
وخرير النبع . أجل لو قدر لهم أن يبصروا بما بصرت من سحر
المكان . لما رأوا فيما أقول سخفا وما انكروه عجبا .

هذا عن سحر المكان . أما عن الفتى . . أو ينبوع الحب . . فقد
كان . وايم الله ، فتى عجيبا .

كان متألئء العينين حلو التقاطيع دائم الابتسام . وكان اعجب
ما فيه قدرته على التحدث عن أمور الحب . . فكان يحملنى باحساسه
المرهف ، وشعوره الفياض الى عالم مفعم بالرضا والسعادة ، ويحمل
ذهنى الى ناحية من التفكير الجميل الذى يقارب جماله جمال المكان ،
فأحس كأن جسدى فى روضة وذهنى فى روضة ، ويتضاعف عندى
الشعور بالجمال والاحساس بالفتنة . . فليس يكفى المرء لكى يتمتع
بجمال الكون ان يحيط به ذلك الجمال بل يجب ان يصفو ذهنه ويهدأ
تفكيره ، حتى يستطيع حقا ان يحس بمتعته .

كان يحدثنى عن الحب . . فكنت أحس بمتعته من حديثه أكثر
مائة مرة من المتعة التى أحسستها من الحب نفسه . . وكنت أجزم
فى نفسى أن ذلك الذى أصابنى فيما مضى من الأيام وظننته حبا . .
لم يكن قط حبا ، انما الحب هو ذلك الشئ الذى يضىء جوانح الفتى
ويشع من قلبه فيغمره ومن حوله بسنا مشرق وضاء .

كان شاعرا وموسيقيا ، وكنت أحس عذوبة فى صوته . وما اظننى
قد طربت لسماع الشعر ، كما طربت عندما اسمعنى تلك الأبيات التى
تفيض عذوبة وتسيل رقة . لقد كانت له قدرة عجيبة فى الالقاء .
فكان يحملنى على الاصغاء اليه وأنا الذى لا أنكر أنى قد استطعت
من قبل أن أرغم نفسى على الانصات الى أى متحدث ، مهما بلغت
خطورته دون أن يشرذ ذهنى فى منتصف الحديث . . لقد علمنى كيف
أذوق الشعر . وأستمع به ، وقد كنت من قبل لا أرى فى الشعراء

الا مجانين مولعين بالقوافي والأوزان .

ولقد سمعت من قبل الكثير من الموسيقى والغناء ولست آتهم
نفسى بجمود الحس ، فأدعى أنها لم تك تطرينى وقتذاك ، ولكنى مع
ذلك لم أكد أسمع من الفتى قصيدة « ردت الروح » حتى خيل لى أن
هاجع الاحساس منى قد تيقظ وأحسست كأنما قد ردت الروح فعلا
فقد كان للحن الأنشودة وصوت الفتى « سحر لعمرى له فى السمع
ترديد »

ولم أكن أعلم الشيء الكثير عن قصة الفتى العاشق حتى جلس
الى فى ذلك الأصيل ، وأخذ يحدثنى عن ذلك القلب الذى خفق
زهفا . . . والذى مسه من نكرى صاحبه سحر جعله من فرط الطرب
يرقص ثم رأيت يفتش بين يديه رسالة قد طويت بعناية وانهمك فى
قراءتها وسألته ضاحكا :

- رسالة حب ؟

- أجل .

- من صاحبك ؟

- كلا . . .

- الى صاحبك ؟

- بل منى الى نفسى . . . لقد وجهت فيها الحديث اليها وأنا أعلم
سلفا أنه لن يصل الى مسامعها لأنى لا أعلم كيف أوصلها اليها . . .
ومع ذلك فقد كتبتها لأنى أحسست بلذة فى كتابتها . . . كما أحس بلذة
فى قراءتها كلما هزنى الشوق اليها . . . أجل يا صاحبنى هى رسالة
منى الى . . . أنا كاتبها وأنا قارئها .

ثم عاود القراءة ، وبعد برهة مد الى يده بالرسالة وهو يقول
باسما :

- خذ . . . سل نفسك بهديان منجنون !!

وأمسكت. بالرسالة مجيبا اياه :

ـ لقد احترمت المجانين منذ لقبتك ٠٠ وكرهت رؤية العقلاء ٠
وبدأت أقرأ الرسالة فى تأن وتمعن ٠٠ كما يرتشف مدمن الخمر
كأسا معتقة ٠٠. وبخيل الى أن الفتى حين كتبها قد أمسك بالقلم بين
ضلوعه لا بين أصابعه ٠٠ فقد أحسست بحرارة عجيبة تنبعث من
الكلمات ، واليك الرسالة :

« يا صاحبتى ٠٠

قوة الخيال قد أضحت سلواى ٠٠ وزادت فى نفسى القناعة حتى
أصبحت أكتفى بطيفك ٠٠ وحتى أضحى مجرد تصورك وتخيلك ٠٠
يذهب عنى اللوعة ٠٠ ويضيع الشجو والشجن ٠٠ وماذا أملك
يا صاحبتى غير الذكرى أجترها من جوفى كما تجتر الإبل غذاءها
المخترن اذا ما برح بها السغب وشفها الظمأ ٠٠ لا فرق بيننا الا أن
غذاء الإبل ينقد ٠٠ ونكرارك المخترنة فى قلبى لا تبلى ولا تنفد ٠
ما زوعنى بعدك ، يا حبيبتى ، وما ألم نفسى ٠٠ لأن نفسى قوية
الأمل شديدة الايمان بالله وبك ٠٠ وانى أحس أنك قد بت - على بعد
الشقة - أقرب الى نفسى من أى وقت آخر ٠٠ فقد زادنى البعد ولها
ورلعا ٠٠ حتى ليخيل الى أن بيرون قصدنى بقوله : « ان الفؤاد
لتيقنت على البعد فلا يزداد الا ولعا ٠٠ كالمرأة تريك صورتك ثم
تتقت فتريك ألف صورة » ٠

الناس من حولى يشكون الوحدة المضية ٠٠ ويلعنون تلك
اللحظة التى ألت بهم فى هذه الوحشة فأبعدتهم عن الصحب
والخلان ٠٠ وانا وحدى أحس أن نفسى قانعة راضية مغتبطة ٠٠
لأنى ما شعرت قط بالوحدة ٠٠ فانك أمامى دائما ٠٠ فما بارحت
صورتك مخيلتى وما غادر طيفك رأسى ٠٠ فاضحكى يا حبيبتى لأنى
أسمعك ٠٠ وحدثينى كما فعلت فى ساعة اللقاء ٠٠ فما زلت معى
وما زلت معك ٠

كم حاولت ان اكتب لك قبل الآن .. ولكنى كنت اعلم ان كلماتى
ستنطبق عليها الصفحات فيطويها الزمن .. او ستتطاير كما يتطاير
الهشيم وتذروه الرياح .

انى لانكرك حين رايتك اول مرة وانت طفلة لاهية وقد وقفت فى
فناء المدرسة مرتدية المريلة السوداء ، وحولك بضعة اطفال يلعبون
الحجلة ، وكنت عائدا حين ذاك من المدرسة وقد تابطت بضعة من
الكتب فلمحتك من خلال السور الحديدى .. بشعرك الذهبى المتطاير
وراءك والذى لا يكاد يستقر فى مكانه ، وعينيك الزرقاوين المتلألئتين ،
وانفك الدقيق الذى لا يكاد المرء يبصر فتحته ، وشفتيك الرقيقتين
القرمزييتين ، وتلك الحمرة التى قد كست خديك فبدوا كأنهما جمرتان
ملتهبتان .

وتعودت من ذلك اليوم ان اواظب على العودة من المدرسة فى نفس
الموعد لكى ارقبك وانت تتوثبين فى الفناء حتى نشأ بينى وبينك نوع
من الصداقة العابرة والتعارف بالنظرات والأعين .

وكانت صويحباتك لا يكدن يبصرننى حتى يتهامسن فيما بينهن
ثم يسرعن لانبائك بوجودى .. فتلتفتين الى وقد شاع فى وجهك
السرور ، واقتر ثغرك عن لآلىء منضدة ، وكان لتلك النظرة والبسمة
لذة فى نفسى لا أظن كثيرين من الناس احسوا بها .. فهى أشبه بتلك
اللذة التى يحسها المؤمن المتعب حين يفرغ من عبادته .. ويشعر
ان الله قد رضى عنه .

ومرت الأيام والشهور والسنون وبدأت مرحلة النضج .. وأخذت
تتحولين من طفلة لاهية الى فتاة رزينة واعية .. وبدأت تضنين على
بتلك الابتسامة التى كنت تمنحيتها اياى فى غير كلفة ودون تفكير ..
واستبدلت بها تلك الاحمرار الذى يكسو وجهك والخجل الذى يعتريك

كلما التقت عينا ٠٠ وأصبحت صويحباتك أكثر حكمة واتقادا ٠٠
فاستبدلن بالاشارات غمزا خفيفا وهمسا رقيقا ٠

وفى ذات يوم عدت من المدرسة كعادتى ، فراعى أن وجدتهم قد
سدوا فتحات السور الذى كنت أطل عليك منها ، ولكنى عولت على
أن انتظرك حتى تغادرى المدرسة فألحك وأنت تصعدين الى العرية ،
وتبتسمين لى ابتسامتك التى تشرق فى نفسى فتضىء جوانحى ٠٠
ورأيت زميلاتك يشرن لى باسعات ٠

ثم تبدل أمرك بعد ذلك ٠ فكنت إذا رأيتنى ، تعمدت الا تلتقى
أبصارنا ٠٠ وكسوت وجهك حلة من الجد والغضب كان مرأى
يسوءك ويؤلمك ٠٠ فأصابتنى دهشة اليمه ، وأحسست بالمرارة تفيض
فى نفسى ٠٠ وبالألم يحز فى قلبى ٠٠ وتمنيت لو سنحت لى الفرصة
لأسالك عما يدل ما بنفسك ٠

وأخيرا سنحت الفرصة ٠٠ فقد التقينا وحيدين ٠٠ وجها لوجه
٠٠ فى معرض للزهور ٠

وتصافحنا اذ ذاك ، وتلاقت أيدينا لأول مرة ، فأحسست برجفة
تسرى فى جسدى ٠٠ ولم أصدق أنني فى يقظة ٠٠ فقد كان بعيدا على
أن القاك وحيدة فى المعرض ٠

وغادرنا المعرض فسألتك أن نجول برهة فى الحديقة فوافقتنى بعد
تردد قصير ، ونأيت بك الى خلوة فجلسنا نتحدث ٠٠ ولم يكن الحديث
بالأمر اليسير علينا حينذاك ٠٠ فقد كان لدقات قلبينا صوت مسموع ،
وكنت أحس بقلبى يكاد يقفز من بين أضلعي ٠

وكان اول ما سألتك عنه هو سبب تلك الاعراض والتجاهل ٠٠
فأجبتنى بنظرة رقيقة بددت من نفسى بقايا سحب قاتمة من التشكك
وأنباتنى أنك لا تستطيعين الا أن تستخفى بهذا المظهر فقد كثر حديث
صاحبائك عنك حتى أصبحين بسميتك العاشقة ٠٠ وأنك خشيت عاقبة

هذا اللغظ منهن قلم تجدى بدا من أن تتجهى لى وتتكرى على
ما يبدو لهن حتى يكففن عن غمزن ولزهن
وأخبرتك حينذاك أن لا ضير من علاقتنا ، لأنها علاقة حب سينتهى
برابطة قدسية شريفة ، ورأيت عينيك تبرقان بالسعادة وقلت ان الوقت
لم يحن بعد ، فأجبتك مؤكدا أنى سأخرج بعد بضعة أشهر ، ولن
يكون هناك حائل بيننا وبين الزواج .

وطال بنا الوقت ونحن نتحدث عن أمانينا وأحلامنا . . ثم وجدنا
الوقت قد سرقنا . . أو على الأصح أننا قد سرقنا الوقت . . وهمنا
بالعودة وكنت أحس بلهفة الى أن أقبل يدك ، فأمسكت بها فى شوق
وشغف ، ورفعتها الى شفتى ، وأنا أخشى أن تسوءك منى هذه
الجرأة ، ولكنى شعرت بك تقترين منى بجسدك ، وأحسست بيدك
تحيطان بعنقى ، ووجهك يلاصق وجهى ، ويعبير أنفاسك العطرة
يختلط بأنفاسى الملهبة .

أبصرت عينيك تنظران الى فى لين ورفق ، وأحسست طرف أنفك
يلامس طرف أنفى ، فمددت شفتى أمس بهما شفتيك مساً خفيفاً ، كما
يجاول الجائع أن يتمتع بتذوق الطعام قبل التهامه ، ثم أطبقت عليهما
بشدة وعنف وضغطتهما ضغطاً شديداً .

ولم تسنح القرصة بعد ذلك الا بلقاء عابر ولحات خاطفة ، حتى
تخرجت بعد فترة قصيرة ثم عينت فى هذا المكان النائى ، فرحلت دون
أن أتمكن من لقياك ، ومع تلك فانتى ، كما قلت لك ، قرير العين هادىء
البال ، فما روعنى بعدك وما أوجعنى ، لأن نفسى قوية الأمل ، شديدة
الايمان . بالله وبك .

أجل ! سنلتقى ثانية « وأحسن الأيام يوم أرجعك » .

★ ★ ★

وانتهيت من قراءة الرسالة الملهبة ، وطويتها فى يدي ، وشردت

ذهنى بعيدا ، ورأيتنى أفكر دون وعى فى الفتاة التى خطبتها منذ أشهر قلائل وكيف رحب بى أبوها أشد الترحيب .. ولكن الفتاة العنيدة كانت ترفض الزواج رفضا باتا ، حتى انتهى الأمر بأبيها الى أن يعدنى بأنه سيحاول اقناعها وطلب منى أن أحاول أنا الآخر من جانبى التقرب اليها .

واستدرجتها ذات مرة ، فأنبأتنى بصراحة أنها تحب ، وأنها لا تريد الزواج لأنها تنتظر من تحب .

ونظرت اليها نظرتى الى طفلة طائشة ، فقد كنت فعلا لا أراها أكثر من طفلة ، وأنبأتها بأنها بلهاء لأنها تتعلق بحب وهمى .. وأنه لو كان ذلك الشخص الذى تظنه يحبها ، يحبها حقا ، لما تردد أن يتقدم للزواج منها .. ثم أنبأتها أن ذلك الحب الذى تتخيله لا ضرورة له ألبتة فى الزواج بل انه يقطاير تطاير الدخان فى الهواء ، وأن نجاح الزواج يتوقف على توافق الطباع . وقلت لها ان الرجال لا يؤمن جانبهم ، وان أغلب الظن أن صاحبها قد نسيها ، وأنه قد استعاض عنها بغيرها ، فالرجال لا يشبعهم حب امرأة واحدة .

ورأيت خيبة الأمل ترسم على وجهها والشك يلوح على قسمايتها . ومرت بى الأيام وأنا أحاول أن أبرئها من ذلك الحب وأشفيها من ذلك الشئ الذى تخيلته علة ومرضا ، حتى نجحت أخيرا فى أن أجعلها تقبل الخطبة ، وان كنت لم أنجح فى أن أزيل ذلك الحزن الذى كان يعتل فى قلبها وأنا ألبسها خاتم الخطبة .

ونظرت الى صاحبى نظرة سريعة ، ثم رأيتنى أسأله :

– ما اسم صاحبك ؟

ودهش الفتى لسؤالى ولكنه نطق بالاسم ، فسرت فى بدنى رعدة هزنتى من أخمص قدمى الى قمة رأسى ، وبدرت منى صرخة مكتومة .
لقد كانت فتاتنا واحدة ! .

وتذكرت ما قلته للفتاة من أن صاحبها قد نسيها واستبدل بها غيرها ، وأحسست كأننى قد أجمت فى حقها وحقه . لقد حاولت أن أقبر حيا ندر فى هذا الزمن وجوده ، حبا من ذلك النوع الذى خلده التاريخ .

وقفز أمامى شيطان الأنانية ينبئنى أن الفتاة من حقى وأنى أستطيع أن أنسيها حبا وأن أترك الفتى فى أوهامه وأحلامه ، فلا بد أن الزمن سيبرئه من حبه .

وأحسست بحيرة شديدة . . وعصف برأسى التفكير ، ولكنه لم يطل بى فقد مددت يدى الى أصبعى فنزعت منه خاتم الخطبة ، وأمسكت بيد صاحبى فى الظلمة فوضعت الخاتم فى أصبعه ، لقد كان هو أحق به . ودهش الفتى دهشة شديدة ، ولكنى أنباته بجلية الأمر فى صوت خافت ، وقلت له اننى سأسوى الأمر من جانبى ، وسأفعل له كل ما يلزم وليعتبر الخاتم هدية منى ، على أن يهب لى شيئا واحدا ، هو تلك الرسالة التى كتبها الى صاحبتة لا لأنى أريد أن أتعلم منها الحب ، فأغلب ظنى أنى قد تجاوزت مرحلة التعلم ، بل لأعلم بها اولادى فى صياهم كيف يحيون !!

رجل مجهول

عزيزتى :

هذه رسالة مجهول .. ما خطر بباله قط - مذ عرفك - أنه منك
مجهول .. حتى لقيته فأنكرته شر انكار ، ونظرت اليه وهزئت رأسك
وقلبت شفتيك وسألته « من تكون ؟ » فأرقت بسؤالك لا ماء وجهه ،
بل ماء روحه .. وتركته عودا يابسا وكومة من هشيم .
أنا يا صاحبتى ذلك النكرة .. الذى أراق على قدميك خلاصة
روحه ، وعصارة نفسه .

يا للروح الذى ذهب بددا ، ويا للنفس التى ضاعت شظايا .
أنا المجهول الذى لا تعرفين ، والذى يعرفك خيرا من معرفتك
نفسك . أنا المجهول الذى رفحك الى الذررة وهويت به الى الحضيض
.. أنا الذى صنعتك فحطمتنى .. أنا الذى وهبت لك الخلود فأبيت
على حق العرفان .

ترى هل ستعرفيننى هذه المرة ؟ أم أنتى ما زلت عندك نكرة
مجهولا ؟ أنا لا أستجدى عرفانك ، فسواء عندى أعرفتنى أم لم
تعرفينى ، لقد أضحيت عندى شيئا وهميا لا اثر له فى عالم الحقيقة ،
وما عاد بى شوق الى رؤيتك ولا لهفة على لقائك .

لا عتاب بيننا يا ساحرة ، ولا حساب ولا لوم ولا تائب ، وكيف
ألومك والعلة فى نفسى والداء فى قلبى وفى روحى ! ما ذنبك وقد
جعلت منك ما لا قبل لك بأن تكونيه لا أنت ولا أية امرأة سواك . .
ما ذنبك وقد سلطت عليك من أوهام نفسى الشاعرة المرهفة ما صنع
منك مخلوقة وهمية ليست لها بالواقع صلة ، وجلعت عليك من
الأضواء ما جعلك تشعين بالسحر وأنت الخابية المظلمة ، والبستك
من نسيج الأوهام ما جعلك فى مصاف الآلهة .

ما ذنبك أن أجعل منك معبودة ولست . الا امرأة .
امرأة ! . . لشد ما أبغض النساء من أجلك . . بعد ما أصببتنى
بذلك الخذلان وملأت نفسى بمرارة الهزيمة .

★ ★ ★

كيف لقيتك أولاً مرة ؟ وكيف كنت أنت ؟
لقيتك على شاطئ البحر . . لقاء غير عادل . . فأنت تدرين
ما يعنى شاطئ البحر بالنسبة لك ، وتدرين أية قارسة أنت فى هذا
الميدان ، وبأى أسلحة ماضية تصرعين القلوب وتأسرين الأرواح ،
وتعرفين كيف يجردك البحر من ثيابك فكأنما سل سيف الفتنة من
غمده . . وأطلق سهم السحر من قوسه . . سيف قاطع بتار ، وسهم
مارق مشحون ، لا يخطيء الهدف .

كيف كنت ؟ سلىنى أنا ، فأنا أدرى الناس بك ، ومن غيرى يستطيع
أن يصفك ؟ وقد انطبعت صورتك فى ذهنى وفى قلبى مذ رأيتك أول
مرة ، فلم تغادرهما ، حتى بعد أن تجاهلتنى ، وألقيت بى فى زوايا
النسيان .

كنت متكئة على رمال الشاطئ وكان أول ما أبصرت منك موجات
من شعر تهدلت على كتفك وانسابت على ظهرك ، ووقفت أرقبك
مشدوها زائغ العينين ، فاغر الفم ، وجذبنى صاحبى من يدي
وسألنى فى دهش :

— ما بك ؟ ! —

ولم أجبه ، وسرت بجانبه ونظري مثبت في شعرت وفي جسدك المنبسط على الرمال .

وعدت اليك مرة ثانية ، لأجدك تتوثبين على الشاطئ في مرج الطفولة اللاهية العابثة ، ورأيت جسدك قد استقام ويا له من جسد نموذجي كامل . . . قد شده المايوه ، وأبرز مفاتنه : .

واتخذت لي مكمنا أرقبك منه خفية ، من غير أن أحس في ذلك حرجا أو خشية .

ونظرت الى وجهك ، فلم أجده غريبا عنى . . . وكأني لا أبصره لأول مرة ، بل كأن بيننا ود قديم . . . ولم أر به ذلك الجمال المجلوب ، وإنما رأيت جمالا لا أثر فيه لصنعة ولا تطرية . . . فلا الحاجبان مزججان . . . ولا الشفتان مرسومتان . . . ولا دهان ولا أصباغ . . . بل وجه تعهدته الشمس فصبغته بسمرة حمراء كلون الخوخ . . . وعينان بهما خضرة صافية ، وشفتان دائمتا الابتسام عن ثنايا لؤلؤية فلجاء يبدد مرأها الهموم ويطرد الأحزان .

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد لي شاغل في الحياة سواك . . . أجوب الشاطئ كل يوم باحثا عنك حتى اذا رأيتك أحسست بالهدوء والراحة ، واخترت بعد ذاك نقطة مراقبة أرقبك منها كأني حارس لا تغفل عيناه ، فاذا سرت تبعتك ، واذا نزلت البحر هبطت وراءك أنزع البحر جيئة وذهابا . . . لا تخفيك عنى أمواج الماء ولا أمواج البشر . . . أميز رأسك بين مئات الرؤوس المنبثة في الماء مهما تبعد بيننا المسافة . ومضى الصيف وأنا على هذه الحال ، قانع منك بذلك القدر ، لا اكاد أرى ان كنت قد أحسست بي بين مئات الذين يزخر بهم الشاطئ . . . أو كنت قد ميزت عيني بين مئات العيون اللهفي .

وافترقنا بعد ذلك . . . وحل الشتاء . . . ولم تكن الفرقة بيننا لتعنى

فرقة حقا ٠٠ فما أحدثت فينا تغيرا يذكر ٠٠ وما أحس لها أحدنا أى أثر ٠٠ فمن ناحيتى أنا لم يطرا على جديد سوى أنى نقلتك من مرأى البصر الى مرأى الذهن ، واستعضت عن مراقبتك بالعين تتبعك بالذاكرة ، وما أظن احداهما تختلف كثيرا عن الأخرى ٠٠ فما كنت أنال منك بالبصر أكثر مما أنال بالتفكير .

أما من جانبك أنت ٠٠ فما كانت الفرقة تعنى لديك شيئا ٠٠ وبماذا تضيرك فرقة من لم تحسى وجوده ؟ .

واستبدت نكرارك بنفسى ، وملكت على كل تفكيرى ٠٠ وبدأت أتخذ منك ملهمة ٠٠ أستلهم منها كل ما أكتب ٠٠ فكنت تفيضين على بالحياة ٠٠ وتمنحيتنى من وحيك ما يملأ كتابتى حرارة وحسا .
وأدبر الشتاء ، وأقبل الصيف مرة أخرى ، وكان بنفسى اليه حنين ولهفة ٠٠ فقد أضحى الصيف يعنى لدى شيئا واحدا هو أنت ٠٠ أنت وحدك ٠٠ ولا أحد سواك .

ومرت بضعة أيام وأنا أطوف الشاطيء باحثا عنك من غير أن أعثر لك على أى أثر ، ورأيت صاحباتك اللاتي تعودت أن تجلسي بينهن ، وهممت - لولا الحياء - أن أسألهن عنك . أسأل عن حورية البحر ذات الشعر المنساب انسياب الغدير المترقق .
وكدت أياس من لقائك وأحسست بخيبة أمل شديدة حتى كان ذات يوم بصرت بك ، فكان الروح قد ردت الى .

كان ذلك بين الأمواج وقد أخذت تغطسين لاهية ٠٠ ووقفت هنيهة وأنا أبصر رأسك غاطسا فى الماء ، وقدميك معلقتين فى الهواء ٠٠ ولست أدرى أى شيطان دفع فى نفسى من الجراءة ما جعلنى أمد يدي الى قدميك المعلقتين المقلوبتين فأبدا فى زغزغتك .

وانقلبت واقفة على قدميك وأخرجت رأسك من الماء ونظرت الى فى شيء من الدهش ، ثم أفلتت من شفتيك ضحكة مرحة ٠٠ وسألتنى

فى تحد عما اذا كنت أستطيع الشقلبة كما تفعلين •
وهكذا بدأ بيننا التعارف •• بطريقة بهلوانية صبيانية قد تبدو
لى على جانب كبير من التفاهة ، ومع ذلك فقد اعتبرتها وقتذاك
واقعة خطيرة وحادثا جلا •• بل لقد اعتبرتها نقطة التحول فى
مجرى حياتى •

ومن ذلك اليوم ، تحول حبى السلبى الى حب ايجابى •• ولم
أعد أكتفى منك بالنظرة العابرة والمراقبة •• بل بدأت أتلهف على
صوتك والحديث معك ولم تبخلى على بذلك بل منحتنى من اقبالك
ما ألهب فى نفسى جذوة الأمل •• وأبديت لى من جمال نفسك وعذوبة
روحك ما تضاعلت بجواره فتنة وجهك وسحر جسدك •

وحدث بيننا ذلك اللقاء العجيب الذى حلقت معك فيه الى نروة
السعادة تحوطنا هالة من الأمانى العذاب المشرقات •
جلسنا نتحدث •• وسألتنى عن عملى فى الحياة فقلت لك اننى
أشتغل بالأدب •• فتملكتك دهشة وسألتنى :

– أى نوع من أنواع الأدب ؟

– كتابة القصة •

– لقد قرأت لكثيرين من الكتاب •• نكرنى بشيء مما كتبت ، فقد

أكون قرأت لك شيئا •

ودهشت من قولك •• فقد كان يبدو لى أنك من نوع لا يهتم

بالأدب أو القراءة •

ونظرت الى وجهك ، والى شعرك المائج ، ثم أطرقت وقلت كأنما

أحدث نفسى :

– كتبت ذات مرة •• قصة شعر •

– قصة شعر ؟ •• أنت الذى كتبتها ؟

ورفعت رأسى مأخوذا •• وسألتك متلهفا :

– نعم .. لقد أحضرتها الى صاحبة لى .. وقالت لى اقرئى هذه قصتك . وتناولت القصة وأخذت فى قراءتها ، ولشد ما أدهشنى أن ابصر فى القصة صورة طبق الأصل منى .. كأن كاتبها رسام يصور الواقع

كيف أصف وقع كلامك فى نفسى ؟ ، كيف أصف لك السعادة التى أفعمت قلبى وقتذاك ؟ .

من يتصور هذا .. أنت تقرئين لى ؟ وتقرئين القصة التى استوحيتها منك وكتبتها لك ؟ .. لقد كان هذا أكثر مما أرتجيه .. فما كنت أمل قط ، وأنا أكتب عنك ، أنك ستقرئين ما أكتب .

والتقينا بعد ذاك .. وكان معك ألبوم ملئ بصورك وجلست تعرضين على الصور .. الواحدة بعد الأخرى . وتسأليننى رأى فيها . وأحسست وقتذاك وأنا أجلس بجوارك وأنقل البصر بين الصور وبينك ، أنك قد سريت فى ندى .. وأنه من العسير على أن أحيا بدونك .

واقترقنا بعد ذاك . فقد انتهى الصيف ولم تكن هناك فرصة لكى أراك الا فى الصيف الذى يليه .. فما كنت أستطيع أن أراك فى غير الصيف .

وساءلت نفسى .. كيف أستطيع الصبر حتى الصيف التالى ؟ وقد تغلغلت فى نفسى وسرريت فى ندى .

أجل يا صاحبتى .. لقد أضحى من العسير على أن أحيا بدونك . ولكن من قال انى سأعيش بدونك ؟ .. ماذا تستطيع الفرقة أن تنال منى .. أنا تاجر الأوهام وبائع الأحلام . ماذا يفعل بى بعد الشقة ونأى المزار ، وأنا الذى أستطيع بذهنى أن أقرب كل ما شط ، وأنال كل ما نأى .

ولقد عذمت على أن أعيش معك ، وألا أفترق عنك لحظة . ولم يكن

ذلك بالأمر العسير ، فأنا أعيش فى كل ما أكتب ، فلو كفت عن الكتابة
الا عنك ، لكفت عن العيش الأ معك .

هل فهمت يا ساحرة ؟ لقد عزمت على أن أخلو اليك أنت دون
سائر ملهاتى . واستقر بى الرأى على أن أمنحك وحدك : خلاصة
الروح ، وعصارة الذهن .

ومكذا بدأت كتابى الأول . . كتابا طويلا ، غير تلك الأ قاصيص
التي تعودت نشرها ، لا لشيء الا لأعيش معك ، ولأخلو واياك ،
ولا ثالث لنا سوى قلم صنامت مشحون ، وورقة خرساء بيضاء .
وعكفت على كتابى ، أو كتابك ، وبى من الشوق واللهفة ما كان
ينسينى كل ما حولى ، وقد تملكنى الحنين كأننى غريب مقبل على
وطنه ، أو كأننى أم تتعهد رضيعها .

وأخذت أكتب وأكتب . . ومرت على ليالى الشتاء الطوال ، وأنا
جالس الى مكتبى وحيدا ، فى غرفة بأعلى المنزل كاتى فوق هام
السحب ، أستمد مما حولى قوة وجلدا . . من عصف الريح ، ونباح
الكلاب ، وصياح الديكة .

كنت أبدو كفقراء الهنود . . انسان يعذب نفسه . . ومع ذلك ،
فما أحسست بمتعة فى حياتى كما أحسستها فى هذا العذاب .
أو ما كان يبدو لمن حولى عذابا .
كنت لا أفعل الا شيئين : التفكير والكتابة . . التفكير فيك ،
والكتابة عنك .

وحل الصيف أخيرا ، وأنا ما زلت منهمكا فى الكتابة . . أو على
الأصح ، منهمكا فى اللقاء . . أنا وأنت فى خلوتنا سويا . . أناجيك
أجمل مناجاة ، وأصوغك كما أشتهى .

ولم تسنح الظروف فى ذلك العام أن أذهب الى الاسكندرية
وبالتالى لم تسمح لنا بلقاء ، ومع ذلك . . فما أحسست بشيء من

الضيق ! ٠٠ بل على النقيض ، لقد سرنى ذلك ، فقد كانت بى رغبة شديدة فى ألا ألقاك الا بعد أن أكون قد انتهيت من الكتاب ، وبعد أن يكون قد تم طبعه ونشره وتوزيعه .

كنت أريد ألا نلتقى ، الا وقد قرأت الكتاب ، الذى أفنيت فيه نفسى . كنت أريد أن أسمع من شفقتك كيف تذوقت عصارة روحى . كنت أختزن الشوق ، وأكبت الالهة ، قانعا بذلك اللقاء الوهمى على الصفحات المتناثرة أمامى . وكلما هفا القلب اليك عللته بحلو الأمانى ، ومنيته بعذب الآمال . وكلما حن الفؤاد وشكا طول الفرقة ومرارة البعد ، صورت له كيف ستلقينى بعد قراءتك الكتاب .

ومضى الصيف وأنا ما زلت منطويا على نفسى فى صومعتى كالناسك المتعبد ، ليس لى من متعة فى الحياة سوى الكتابة .

ولم يحل الشتاء الا وقد انتهيت من الكتابة ، وبدأت بعد ذلك مهمة الطبع ، وتصحيح البروفات ، وعمل الاكلاشيوات ، وغير ذلك من المشاق التى لم يكن منها بد . وكنت أحس أنى فى عجلة من أمرى ، فقد كانت بى رغبة جارفة فى أن أنهى الكتاب قبل أن يحل الصيف . وأخيرا فرغت من مهمتى . . . وانتهى الكتاب ، ووقفت فى المطبعة أمسك أول نسخة أقلبها فى يدي وأتسوس غلافها اللامع .

أى احساس عجيب كان يملكنى ؟ كيف أصف لك مشاعرى وقتذاك ؟ لم يكن الكتاب بين يدي أوراقا مطبوعة بل كان شيئا حيا وكنت أكاد أسمع من بين أوراقه حفيف أنفاس . . . لقد كان الكتاب . . . أنت . . . وكان أنا !

وخرج الكتاب الى الأسواق ، وتناولته الأيدي . . . وكنت فى لهفة لأن أسمع كلام الناس عنه ، وكيف يقع من نفوسهم . . . كنت فى حالة توتر وانتظار ، كأنى طالب ينتظر نتيجة الامتحان . . . ولم تكن رغبتى فى النجاح ، واهتمامى لأراء الناس نتيجة اهتمامى بهم أو اهتمامى

بنفسى ، أو حبا فى الظهور ، بل كنت أتعجل حكمك على الكتاب
وأتمس بين أقوالهم وآرائهم كيف سيقع الكتاب من نفسك ، وكيف
يروئك فيه •

وملأنى حديث الناس عنه بالرضا ، وأحسست من كل أقوالهم
بالراحة والاطمئنان فى قرارة نفسى • ولن أحاول أن أبرىء نفسى من
الغرور الذى يلزم كل كاتب ، أو أبرىء الناس من المداهنة والنفاق ،
ولكنى مع كل ذلك أستطيع أن أجزم لك بأن تعبى فى كتابته لم يذهب
سدى •

وهكذا بدأت أتحرق شوقا للقاءك •• وقد أقمعت نفسى الثقة ••
وانتابنى شعور الجندى الظافر ينتظر الجزاء والتقدير ، بعد أن قدم
فى المعركة عصارة نفسه •

وكنت أجلس الساعات الطوال ، وقد أمسكت بالكتاب فى يدى ،
وأنا أتخيلك ، وقد قرأت الاعلانات فى الصحف عن كتاب ظهر لى ،
ثم ذهبت الى احدى المكتبات لشراؤه • وعدت الى بيتك وخلوت به
الى نفسك ، وبدأت تقرئينه • وكنت أتوقف أمام فضول الكتاب ،
وأصور لنفسى كيف يقع كل منها فى نفسك ، وأتخيل مشاعرك
وأحاسيسك •• وأنت تبصرين نفسك فى الكتاب !

★ ★ ★

وجل الصيف ، وذهبت الى الاسكندرية ، ولم أفعل شيئا فى أول
يوم سوى البحث عنك •

ولم أجدك ، لا فى أول يوم ولا فى الأيام التالية • أحسست بخيبة
أمل شديدة ، وتملكنى يأس جارف وضيق مستبد ، ولم أعد أطيع أن
أحدث انسانا أو يحدثنى انسان •
ولم أجد بدا من السؤال عنك ، فاستجمعت شجاعتى وسالت

صاحبة لك. تعودت أن أراها دائما معك ، فانبأتني أنك قد سافرت ،
وأنها لا تعرف متى تعودين .

وبدأت أتصبر وأنتظر ، حتى كان ذات يوم قبيل الغسق ، وقد بدأ
الشاطئ يقفر من الناس ، وأخذت أسير على الرمال متباطئا أرقب
الشمس تنهادى فى نهاية الأفق ، عندما التفت ببصرى فجأة الى
الناحية الأخرى . فوجدتك أنت . . كأنك شمس تشرق لتعوضنى
خييرا من الشمس الغاربة .

وتملكنى الارتباك ، وخفق قلبى بشدة ، فقد كانت مفاجأة شديدة
الوقع . وما كان يخطر ببالى قط أن أراك فى تلك الساعة .

ومضت فترة قصيرة تغلبت فيها على حيرتى وارتباكى ، ثم
اندفعت اليك مبتسما ، ومددت يدي فشددت بها على يدك .

وكنت أتوقع أن تحدثينى أول ما تحدثينى عن الكتاب ، ولكنك
وقفت صامتا وقد بدت فى نظرتك علامات الدهش ولم تحدثينى عن
الكتاب ولا عن غير الكتاب .

أحسست بشيء من الحرج . . وبدا لى أنه ليست لديك أية فكرة
عن الكتاب . . وقلت لنفسى من المحتمل الا تكونى قد قرأت عنه أو
سمعت به .

وقلت لك فى رفق : « ان لدى كتابا أود اهداءه لك » .

وكنت أظن أن قولى خير اصلاح للموقف وخير علاج لما احس به
من حرج ، ولكنى وجدت دهشك يزداد ، ووجدتك تقطين جبينك
وتهزين رأسك . وتقولين متسائلة :

– كتاب ؟ . . لى أنا ؟

– أجل . . كتاب لك . . وضعته انا .

– انت . . ؟ من أنت ؟

وبلغت ريقى ، وأحسست بخذلان شديد .. وتملكنى الوجوم
 والارتباك ، ثم أخذت أتمتم بصوت خافت معتذرا :
 - انا متأسف .. الظاهر أنه قد حدث عندى التباس ، لا تؤاخذينى -
 ثم أوليت ظهري وفررت هاربا .
 « من أنا ؟ » ، .. يا لهزاء الحظ وسخرية القدر .
 أنا من جعل منك كل شيء ، وجعلت منه غير شيء .. أنا من
 محوته من ذاكرتك .. وأثبتك فى ذاكرة الزمن .. قاتل الله الوهم
 لقد أضعت فيه عمرى ، وأقنيت فيه زهرة نفسى .
 « من أنا ؟ » ، .. أنا الذى قدم عصارة روحه فأرقتها على قدميك
 ونزيتها مع الرياح .
 يا للقراء الواهمين ؟ .. لو أدركوا حقيقة ما قدمت اليهم ،
 ولو عرفوا زيفه ، لانقلب اعجابهم سخرية ! .
 ما حيلتى معهم ؟ .. لو كنت مثالا لحطمت التمثال ! ليقتنى
 استطيع أن أجمع الكتاب .. لأعمل منه كومة أشعل فيها النار ..
 فلا يبقى منه الا رماد تذرره - كما نرقتى - ريح النسيان .
 شيء واحد هو الذى يعزىنى عنك ، ويملا نفسى سلوانا ، هو أنك
 أنت .. لم تكونى أنت .
 أجل .. لم يكن وجهك هو ذلك الوجه البريء الذى تعودت أن
 أراه ، فقد لمحت به شفقتين مرسومتين ولمحت به أصباغا واللوانا .
 اى والله يا صاحبتى ، انى ما عدوت جادة الصواب ، وانا أعتذر
 لك وأقول : انه قد حدث عندى التباس .
 « من أنا ؟ » ، .. أنا يا اختاه .. من ضيع فى الأوهام عمره .

رجل كريم

سيدي العزيز :

مضى عام على زواجي. أو ما يقرب من العام وأنا حائرة لا أدري أين موضعي من زوجي ، وأين موقعي من السعادة والهناء ، ومن أحلام العذارى التي طالما تراءت لي وأنا فتاة لم يتعد تفكيرها دور الأمانى والأحلام .

لم أك أريد أن أعترف لنفسي بأن زواجي فاشل وأن زوجي لم يعد يحبني كثيرا ، واني لم أعد أحتل من قلبه المكان الذي كنت أحتله عند بدء الزواج ، وكنت أكره أن أرى الزمن قد هزمني وخيب آمالي ، وأي زمن؟! بضعة أشهر لم تتعد العام ، أي لحظة في عمر الزمن ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تهدم شوامخ قصوري ، وأن تبدد عذب أحلامي ، فخبث في خلالها جذوة الجب المتقدة ، وانطفأت جمرته المتأججة ، فاذا أنا لا أشغل من تفكيره الا النزر اليسير ، واذا أنا بالنسبة اليه شيء كمالى

ومع ذلك - وهو أسوأ ما في الأمر - لم يكن أمامي الا الخضوع والاستسلام ، والا الرضا والسكوت ، فنحن لا نستطيع أن نحصل

على الحب اذا ما طالبنا به كحق لنا ، اذ الحب هبة ليس لنا ان نطالب بها اذا ما استردت منا . أجل اذا كان حب زوجى لى قد تطاير من نفسه وخفت وخبا . . . فماذا يمكننى ان أقول له ، وماذا فى طوقى ان افعل سوى الصبر والاحتمال ، وان أحاول أن اعود نفسى الحياة بلا حب . وأن اقنعها أن الحب ليس سوى هشيم أحلام تذروه ريح اليقظة .

هل ترانى مبالغة فيما أطلب ؟ . . . أنا أعرف أنه ليس للزوجة ان تطمع فى ذلك الحب المشتعل المتأجج ، الذى كانت تأمل فيه وهى فتاة حاملة ، وأعرف أنه ليس لى الحق فى أن أنتظر من زوجى أن يستمر على شغفه بى ، ولهفته على الى ما لا نهاية ، ولكننى مع ذلك كنت أحس فى نفسى أننى مهضومة الحق ، مهملة منسبية . . . ولم أكن أرانى أطلب أكثر مما تطلبه أية امرأة مهملة عاقلة رزينة . فانا لا أريد أكثر من حقى كزوجة ، أريد أن أشعر أن زوجى يحس وجودى ويعطينى بعض وقته وبعض اهتمامه .

انى لأنكره منذ عام ، وقد جلس أمامى قبيل الزواج بوجهه المتألق الذى يفيض بالبشر ، وابتسامته التى تشيع فى النفس السعادة والهناء ، وصوته العميق الذى ينفذ الى القلب فيخفق طربا . . . لقد كنت أرى فيه رجل أحلامى ، الرجل الذى سيهب لى سعادة العمر ، ونعيم الحياة .

وتزوجنا ، ومرت الأيام ، فاذا بى أرى عمله يستغرق كل وقته ، واذا بى أراه يعشق مهنته أكثر مما يعشقنى ، واذا بى أرانى نسيا .

لا تتهمنى بالسخف ، ولا تقل ان هذا هو ما يجب على كل رجل ، واننى يجب ان أشجعه على حب عمله . . . وأن أكون عوناً له . . . لا تقل هذا فانا أعرفه . . . وما كنت لأطلب منه قط أن يهمل عمله من

اجلى ٠٠ ولكنى اطلب الا يهملنى من أجل عمله ٠٠٠ وأن يساوى
بينى وبين مهنته ٠٠ ويشعرنى أن لى عليه بعض الحقوق ٠

انى لا أكاد أراه الا وقت النوم وعند وجبات الطعام وحتى هذه
لا نكاد نتناولها فى مواعيدها كبقية خلق الله ٠٠ فهو دائما ينسى ٠٠
ينسى أن يحضر الى البيت لتناول الطعام ، وأظلم أنتظر وأنتظر حتى
يدق التليفون ، ثم يخبرنى أنه أسف وأنه سيحضر بعد نصف ساعة ٠٠
وتمضى ساعة وساعتان ثم يحضر الى أخيرا منهوك القوى ٠٠ متعب
الأعصاب ٠

دعنى أعطيك صورة خاطفة ليوم من أيام حياته ٠ حتى ترى اذا
كنت متجنية عليه أو مخطئة ٠

انه يستيقظ فى الصباح ليحلق نقنه ويفسل وجهه ويجلس لتناول
الشاي والافطار وعيناه مثبتتان فى جرائد الصباح ٠٠ دون أن ينبس
بكلمة ٠٠ ثم ينهض ليسأل : أين حقييته ٠٠ هل نسي منظره ٠٠
ليس معه منديل ٠٠ أين طربوشه ٠٠ لقد كاد يخرج عارى الرأس ٠٠
ثم يهبط مسرعا ٠٠ ليتوقف على الدرج مرة أو مرات ٠٠ ويبحث
فى حقييته عن أشياء يخشى أن يكون نسيها ٠٠ ثم يهبط مرة أخرى
منطلقا الى كليته ٠

كان مدرسا فى كلية الطب ٠٠ ولست أدرى كيف كان يقضى
صباحه بالكلية ٠٠ ولكنى أعلم أنه شديد الاهتمام بطلبته
وبمحاضراته ٠٠ وينتهى من عمله فى الكلية قبيل الظهر ٠٠ فينطلق
الى عيادته التى تجمع فيها المرضى ٠٠ التى علق عليها لافتة كتب
فيها مواعيد العيادة : من الساعة الثانية عشرة الى الثانية مساء ،
ومن الخامسة الى الثامنة مساء ٠٠ ورغم ذلك فما انتهى قط من
عيادته فى الثانية أو الثامنة ٠٠ بل لا أكذبك القول اذا ما قلت لك

انه كثيرا ما يصل عيادة الصباح بعيادة المساء .. وانه كثيرا ما ينتهي من عيادة المساء فى منتصف الليل .
وهكذا لا يكون نصيبي منه فى اليوم الا لحظات خاطفة أقضيها مع ذهن شارد .. وجسد منهوك .. وبالطبع كان يجب على أن أقدر أن هذا ما يجب أن تتوقعه زوجة رجل يعتبر من أمهر الأطباء .. ولكنى مع ذلك كنت أراها ضريبة فادحة أبدلها من حياتى ومن شبابى . وفى ذات يوم استيقظت .. وبنفسى شعور الفرح والنشاط .. لقد كان يوم عيد ميلادى .. أول يوم عيد ميلاد يمر بى وأنا زوجة وكنت أتمنى ألا يكون زوجى ناسيا .. وأن يقبل على فيهننتى ويرجو لى عمرا مديدا . وكم كنت أتلف على أن يهدينى أى شىء مهما كان تافها .. ليشعرنى بأنه ما زال يحس بوجودى ويهتم بى .. ولقد حاولت منذ أسبوع أن أنكره فقلت له ان يوم عيد ميلادى هو يوم الثلاثاء المقبل .. ثم قلت بعد هنيهة اننى قد رأيت بمحل الجواهرات تحت عيادته دبوسا على شكل ببغاء لا يزيد ثمنه على خمسة جنيهات .. وانه قد أعجبنى كثيرا .. ولم أقل أكثر من هذا .. بل تركت البقية لتقديره .. وقلت لنفسى هذه الاشارة لا شك كافية لأن يفهم . ومع ذلك فقد استيقظ كعادته ، وانطلق الى الكلية دون أن يشير الى بكلمة واحدة تدلنى على أنه لم ينس .
ووقفت فى النافذة أشيعة وهو ينطلق فى طريقه ، وبنفسى حسرة وقلبي لوعة .. حتى اختفى عن بصرى ، فارتيمت على احدى الأرائك أمسح بيدي دمة ترقرت فى عيني .
أى حمقاء أنا ؟ .. لم لا أحاول أن أكون امرأة هادئة رزينة .. بدلا من التعلق بأهداب الحب وبأساليب المظاهر الرومانتيكية !
ما يضيرنى اذا لم يذكرنى اليوم ؟ وهو الذى لم يذكرنى منذ ثلاثمائة يوم .. ثم من يدرى لعل الله يدفعنى الى ذاكرته اليوم ، فيمر على

محل المجوهرات فيبتاع لى الحلية التى طلبتها ؟ وما ذلك على الله
ببعيد .

وأنعشنى هذا الأمل ، ووجدتتى أدعو الله كائى طفلة صغيرة ، أن
يذكر زوجى أن اليوم عيد ميلادى .. وأن يجعله يبتاع لى الحلية
التى أريدها .

ولا تسخر منى يا سيدى ، فالانسان لا يعدو أن يكون طفلا فى كل
دور من أدوار حياته ، وكم كنت أكره أن أبدو - حتى فى نظر نفسى -
امرأة منسية أو إنسانة مهجورة ، والى من غير الله نلجا اذا ما مس
نفوسنا ضر أو أصاب قلوبنا سوء ؟ .

أجل .. انه لن ينسى .. انه لا بد أن يتذكر .

وهكذا ملأت نفسى بالأمل .. ونهضت لأقوم بترتيب البيت وتجهيز
الغداء .. وأحاول أن أنعش نفسى بالتماس الأعذار لزوجى على
سابق اهماله ، وأن أنكر نفسى بحسناته وأن أقنعها بأوجه الحسن
فيه ، ويأنه خير من كثير غيره من الأزواج .

أجل .. انه لم يكن سيئا بحال من الأحوال ، انى ما زلت أنكر
له يوم ان كانت أمى مريضة .. وساءت حالها .. كيف ترك عمله
وعيادته ليقضى بجوارى وجوارها الليل والنهار ، وكيف كان يأخذنى
بين ذراعيه عندما يعصف بنفسى اليأس كائنى طفلة صغيرة ، ويحنو
على ويغمر رأسى ووجهى بالقبيلات ، وأنكر فزعه اذا ما أصابنى
سوء أو ألم بى مكروه .. لقد كان رجلا كريما يحمل عنى عبء
أحزائى ، وكان لى دائما عونا فى الملمات .

ولم أكن أنا فقط التى يحمل عبء أحزانها ، فقد كانت تلك طبيعة
فى نفسه وكنت أعرف أنه لا يتقاضى اجرا من نصف مرضاه ، وأنه
كثيرا ما يكلف نفسه مشقة الذهاب الى دورهم ، وهو يعلم أنهم فقراء
لا يملكون اجره ، بل كثيرا ما يعطيهم ثمن الدواء ، أفلا يعزبنى هذا

عن اهماله لى ؛ أفلست مخطئة عند ما أتالم لأنه يتأخر فى بعض
الأحيان الى منتصف الليل

ولكنى انسانة يا سيدى والانسان نسرى فيه الأتانية مسرى
الدماء .. كم كنت أود أن يعطينى من نفسه . أكثر - ولو قليلا - مما
يعطيه الناس !

ومرت بى الساعات سريعا ، وأنا منهكة بجسدى فى أداء
واجباتى اليومية .. شاردة بذهنى فى تلك الأفكار التى كانت تعصف
برأسى .. وأنا أدعو الله بين آوثة وأخرى أن يدفع بى الى ذاكرته ..
فيجعله لا ينسى أن اليوم عيد ميلادى .

ودقت الساعة الثانية ، فأسرعت بتجهيز المائدة .. وجلست
أنتظر .. ثم سمعتها تدق الثانية والنصف .. ثم جاوزت الثالثة ..
وهو لم يأت بعد !!

وأحسست بانقباض فى نفسى .. وسرى الحزن بين جوانحى ..
لا شك أنه قد نسى !! فقد كان عليه أن يأتى على الأقل فى مواعده
لو كان يذكر .

ودق التليفون .. ووصل الى صوتهِ يعتذر فى عجلة ويقول انه
سيأتى بعد خمس دقائق .. وفى الساعة الرابعة والنصف سمعت
وقع قدميه وهو يصعد الدرج .

وتملكنى ضيق شديد .. وتمنيت لو استطعت أن أبكى بصوت
عال .. أبيض على بيوم واحد طيلة العام .. يابى أن يذكرنى فيه ؟!
ولكنى تماكنت نفسى ، وفتحت له الباب وقد كسوت وجهى بشاشة
مصطنعة .. حتى لا أزيده هما فوق ما يحمله من هموم عمله .
وانتظرت أن يستلقى على أقرب مقعد ليستريح برهة .. كما تعود
أن يفعل دائما .. ولكنه لم يفعل بل ألقى حقييته جانبا وأمسك بى بين
شراعيه .. وقد علت وجهه الابتسامة التى كانت تضىء نفسى وتبدد

ظلمات قلبى ٠٠ وطبع على شفتى قبلة كنت أحس بالظما إليها :-
وقال لى فى صوت حنون :

- كل سنة وانت طيبة ٠

وهمست فى أذنه وأنا أغلب دمة فرح ٠٠ كانت تحاول أن تقلت
من عينى :

- وأنت طيب ٠

أية هزة أصابتنى بها تلك الكلمات لإربع ؟ وأى تأثير كان لها فى
نفسى وقتذاك ؟ ٠ ان الانسان ليتحول أحيانا الى جملة مشاعر
واحساسات فيكون للكلمات فى نفسه فعل السحر ٠

قلت له بصوت متدفق بالحمد والشكر :

- أنك لم تنس ٠

- أنسى ؟ ٠٠ كيف أنسى ! ان لى هدية ثمينة لك ٠

- الدبوس ؟

- لا ٠٠ هل تذكرين تلك القلادة التى أبديت اعجابك بها ؟

ولم أتمالك أن صحت فى عجب :

- ولكنها غالية جدا ! ٠ فان ثمنها يزيد على مائة جنيه

- أعلم ذلك ٠٠ استطعت أن أقتصد ثمنها منذ بضعة أسابيع ٠

وانتظرت أن يخرج القلادة من جيبه وأن يضعها فى عنقى ولكنه
لم يفعل ؛ وعلمت أنه نوع من السهو الذى هو مصاب به ، وسألته
فى رقة لأنكره :

- أين القلادة ؟

ونظر الى برهة وأجاب وهو يهز رأسه فى شيء من الأسى والأسف :

- بودى لو استطعت احضارها ٠٠ لقد كنت أنوى شراءها

اليوم ٠٠ وقلت للرجل ليعدها لى ٠٠ ولكن الظروف لم تتح لى فرصة

اسعادك بها .. ومع ذلك فاني أعرف انك ستلتصين لي العذر ..
وستعتبرين كأنها قد وصلتك .

وأدهشني منه هذا القول وسألته التوضيح .. فبدأ يقسر قائلا :
- منذ بضعة أيام .. شعرت بغياب أحد طلبتي عن حضور
المحاضرات .. وما كنت لأحس غيابه لو لم يكن من نوع ممتاز ..
نوع يطالعك نكاؤه ونبوغه .. كأنه شعاع يضيء ، وسألته عنه
فعلت أنه قد فصل لعجزه عن سداد المصروفات .. فصل ! انها
جريمة .. أي والله جريمة أن يحرم مثل هذا الفتى الذكي أن يتم
تعليمه . ويقضى على مستقبله .. ويحرم البلد الانتفاع به .. لا لمشيء
الا لأنه لا يملك بضعة جنيهات يسدد بها أجر تعليمه .. وفي الوقت
الذي تتكدس فيه الأموال في خزائن اللئام والسفهاء .. هذا والله
لا يقبله عقل اللهم الا عقل تلك العصابة من اللصوص الذين بأيديهم
أموال البلد وبأيديهم أمره .

وخرجت من المحاضرات فصادفت الفتى في فناء الكلية ، وأقبل
على يحييني .. فذهبت به الى مسجل الكلية وطلبت منه أن يعيد
الفتى لأنني سأسدد بقية مصروفاته ؛ ولكن الفتى هز رأسه قائلا :
« لا فائدة » ، واستفسرته في حيرة عما يقصده « بلا فائدة » ،
فأجابني بأنه هو الذي يبغى ترك الكلية ، إذ يتحتم عليه أن يجد له
عملا حتى يعول أسرته بعد أن شل أبوه . وأصابتنى الحسرة
والحزن ، ولكنني أصررت أن يبقى الفتى في الكلية .. إذ ليس أمامه
سوى عام واحد نستطيع أن ندبر أمره بأية وسيلة .

وذهبت مع الفتى الى بيته وجلست مع أبيه برهة ثم غادرت
الدار .. بعد أن تركت بقية المائة جنيهه .

هل عرفت لم لم أحضر الفلادة ؟ ! هل يمكن أن تقبلي ما فعلته علي
أنه هدية عيد ميلادك ؟

ودفنت وجهى فى صدره ، وهمست وقد غلبنى التأثر :
— هذه خير هدية قدمت لى ٠٠ منذ ولدت ٠

★ ★ ★

سيدتى العزيزة :

اذا كنت ترين عمل زوجك خير هدية قدمت لك منذ ولدت ٠٠ فانى
أرى قصتك خير هدية قدمت لى منذ بدأت الكتابة ٠
فهل تسمحين لى أن أهديها بدورى الى أولئك الذين وصفتهم فى
قصتك باللئام والسفهاء ٠٠ أولئك الذين تكدست فى خزائنتهم
الأموال ؟ .

هل تسمحين لى بأن أنكرهم بأن ملذات الحياة محدودة وأن
أموالهم مهما كثرت فلن ينالوا من متع الحياة أكثر مما نالوا ؟ وبأن
أنكرهم بأن ثروتهم لن تحمل معهم الى قبورهم وأنها لن تنفعهم فى
الحياة الأخرى ٠

أجل يا سيدتى ٠٠ دعينى أنكرهم فما أملك غير التذكرة :
« فنذكر انما أنت مذكر ٠ لست عليهم بمسيطر »

رجل...

غزة في ١٩ مايو سنة ١٩٤٨

سيدي العزيز :

- أكتب اليك رسالتي الأولى من الميدان .. ميدان القتال
- كم أحس لهاتين الكلمتين عذوبة في فمي .. كم لهما من نشوة في نفسي وحلاوة في أنفي .
- كم أشعر وأنا في الميدان بأن اعتباري قد رد الي وان هامتي قد علاها الغار الذي لم يعلها من قبل . وأن أنفي قد بات يطاول نجوم السماء .
- كم أحس وأنا في الميدان بأنني قد وضعت حيث يجب أن أكون ، وأنني قد فككت بعد طول أسر ، وانطلقت بعد طول تكبيل .
- ان بنا للهفة على القتال ، وحنينا الى خوض المعارك .. بنا شوق الى الصعود في القمم ، بعد أن طال بنا الرقود في الوهاد .. بنا شوق الى أن تكون لنا معاركنا بعد أن طال بنا الفخر بمعارك الأجداد .. بنا شوق الى أن نسمع مدافعنا تدوي وطائراتنا تنز .
- أكتب اليك من الميدان ، وأنا مليء النفس بالثقة والايمان .

أليس من فضل الله علينا أن تكون أول معارك نخوض غمارها ..
هى معارك هجوم ؟ ! هجوم شريف .. لا اعتداء أثم .. هجوم حتمته
الشهامة وغوث الجار ، ورد عدوان الأنجاس المناكيد .
أقسم لك يا سيدى أنى ما أحسست قط بالسعادة التى أحس بها
الآن .. وأقسم لك أنى ما شعرت بحب مصر كما شعرت به الآن ..
لقد التف بى جنودى ، وكأنا كلنا نفس واحدة .. نريد أن ننطلق ..
لنبيد الأندال .. وتلقى عليهم درسا قاسيا ، لا يعودون بعده الى بقر
بطون الحبالى وذبح الولدان وسبى النساء .
نريد أن نتقدم .. لنرفع رؤوسنا بين مواطنينا ، ونرفع رؤوس
مواطنينا بين أهل العرب ، ونرفع رؤوس العرب بين العالم قاطبة !
نريد أن نرفع رؤوسنا بين مواطنينا . الذين طال بهم الاستخفاف
بنا وعدم التقدير لنا ، مواطنينا الذين حسدونا على رتبة أو علاوة ،
والذين تساءلوا ما فائدتنا وماذا نفعل ، والذين طالما بخلوا على
الجيش بالأموال ، وقالوا انها أموال تذهب سدى ، وان الأمة لا حاجة
لها بالجيش .. مواطنينا الذى اقترح بعضهم فى مجلس النواب أن
يعمل الجيش فى ردم البرك ، والذين لم يحاولوا قط أن يفهموا أن
الأمم تقوم على جيوشها .. وأننا فى زمن ، التفاهم فيه بالسلاح
لا باللسان .. نريد أن نرفع رؤوسنا بين هؤلاء المواطنين ، وأن نريهم
أن لنا فائدة .. وأننا اذا أذقت الأذفة نستطيع أن نفعل شيئا .. بل
كل شيء .. وأننا كرماء .. لا بأموالنا .. بل بأرواحنا .
نريد أن نرفع رؤوس مواطنينا بين العرب .. نريد أن تثبت أن
مصر جديرة بزعامتهم .. ومن سوانا يستطيع أن يؤكد ذلك ؟ نريد
أن تثبت للعرب أننا مخلصون فى الحفاظ على الود ، أشداء فى قراع
الخطوب .. نريد أن نريهم أن هذا الشبل الذى يدافع عن قلسنتين
من تلك الأسد الذى اجتاحتها فى زمن مضى .. نريد أن نريهم أننا

إذا وعدنا أنجزنا ٠٠ وإذا قلنا فعلنا ٠٠ واننا أمة طحن لا أمة
جعجة ٠

نريد أن نرفع رؤوس العرب بين أهل العالم قاطبة ٠٠ نريد أن
نعيد سوّدا وثد وعزا باد ٠٠ نريد أن نرى الغرب سطوة الشرق ٠٠
نريد أن نقول « كلنا فى المجد شرق » بعد أن طال بنا القول « كلنا فى
الهم شرق » ٠

لم لا تملأ السعادة جوانحنا ، ويشع الأمل من نفوسنا ونحن نعلم
أن كل ذلك نستطيع أن نفعله ٠

أكتب اليك من عربة اللاسلكى ٠٠ وقد جلست أستريح عقب يوم
شاق قضيناه فى الاستعداد لمعركة الغد ٠٠ انى أبصر من نافذة العربة
مغرب الشمس ، وقد أخذت تتهادى فى الأفق ، وأرى أمامى الطريق
الممتد الى مصر ، والذي سلكته قواتنا الظافرة فى قدومها الى غزة ٠
وعلى يمينى قامت غزة ، بدورها البيض ، وعلى قيد خطوات منى
يمتد الطريق الذى ينحدر من أعلى الربوة العالية القائمة فى مدخل
المدينة ، والذي شق المدينة الى البحر ٠٠ وفى أسفل الربوة امتدت
أمامى المزارع الخضر ٠٠ أو « البيارة » كما يطلق عليها المواطنون ،
وامتدت فيها الكروم وتناثرت أشجار الفاكهة وتوسطتها الآبار
الارتوازية ٠

هذه غزة يا سيدى ٠٠ بمزارعها وأسوارها ٠٠ أسوار التين
الشوكى التى طالما درسناها فى التاريخ العسكرى ، والتى علمونا
من معاركها الثلاث دروسا مستفادة ، قالوا لنا ان فيها تجارب
وعظات قد تنفعنا فى مستقبل الزمن ٠

لقد كنا نحن هذه المرة لا الانجليز ولا « اللبى » ٠٠ لقد كان
جنودنا السمر لا جنودهم الحمر ٠٠ لقد كنا مصريين لا اترাকা ولا

استراتيجيين ، لقد كنا نحن هذه المرة الذين سنخلف التجارب ونعطي
العظات .

سقطت الشمس ، وخلفت حواشيها الحمر وآثارها الدامية .
وهجم الليل فبدد الحواشي ومحا الآثار . . . وعمتنا الظلمة وسادتنا
السكون ، الا من أصوات الجنود وهو يحتسون الشاي ، أو أصوات
اشارات تصدر الينا خلال جهاز اللاسلكي من الرياسة بين آونة
وأخرى .

ان علينا أن نتقدم في الغد الى دير سنيد : احدى مستعمرات
الصهيونيين المحصنة المحاطة بالألغام والأسلاك والملاي بالدشم
المسلحة . . . هذه المستعمرة هي احدى أوكار العدو التي تقف عقبة
في طريقنا الى عاصمته . . . ولا بد لنا من ازالة هذه العقبة قبل التقدم
النهائي .

وصلتني الآن رسالة لأذهب للرياسة لتلقى الأوامر النهائية لهجوم
الغد . سأتم لك الخطاب في فرصة أخرى .

★ ★ ★

٢٠ مايو

استيقظنا في الفجر . وينا من الأمل والثقة والفرحة ما ينفس
طفل استيقظ في فجر عيد ، ولم يستغرق منا الاستعداد للتحرك سوى
ثوان معدودات ، فقد كان كل شيء على تمام الأهبة .
بدأنا التحرك بعرياتنا المدرعة ، فقد كان علينا القيام باستكشاف
سريع لمواقع العدو قبل أن تبدأ مدفعيتنا بدك حصونه وتمزيق أسلاكه
وتمهيد الطريق لنا قبل اقتحام المشاة النهائي .
انى ألح الشاويش بكري ، وقد أطل بوجهه من عريكته متهلل
الوجه . باسم الثغر . كأنه غير مقبل على قتال ، بل كأنه يتنزه على
كوبزى بثها في تصريح ٧٢ ساعة .

سرنا برهة على الطريق ، ثم بدأنا نتركه متفرقين يمنة ويسرة
عندما لاحظت لنا دير سنيد في الأفق رمادية شاحبة كأن عليها قنطرة هم
وغبرة كمد .

تحركت الجماعات متجهة الى الأغراض المعطاة لها ، تجس نبض
العدو وتحصل على المعلومات المطلوبة منها . وتحركت مع مركز
رياستى وأنا. أرقب العربات تتفرق وتتباعد .

وصلت الى أذنى أصوات طلقات من ناحية العدو ، طلقات طائشة
يحاول أن يوقع الذعر فى نفوسنا ويبعدنا عن مواقعه ، ولكن العربات
استمرت فى تقدمها غير آبهة ، تاركة طلقاته تذهب مع الريح .

وانتهينا من عملية الاستكشاف ، وقامت العربات بدورة واسعة
أعادتنا الى مواقعنا التى اتخذتها مدفعيتنا لاصلاء العدو بنيرانها
الحامية .

واتجهت الى القائد فأسررت اليه بما استطعت ان أجمعه من
معلومات أخيرة عن العدو وعن مقاومته ومواقعه .

كانت الساعة الثامنة والنصف وما زال أمامنا نصف ساعة قبل
ان تبدأ المدفعية الضرب ، فأتجهت بعرباتي المدرعة الى موقع خلفى
للتجمع ، وجلسنا نرقب رجال المدفعية حتى تبدأ ساعة الصفر .

انى أبصر أمامى أحد زملايى من ضباط المدفعية ، وهو « على
عبد الفتاح » ، ولا أظنك تجهله فقد عرفتك به ذات مرة فى جروبيى .
ذلك الضابط المرح المهذار الذى لا يكف لحظة عن الضحك ، انه ما زال
كما هو ، لا يكف قط عن الضحك . ان النفوس مرهقة ، والأعين
حائرة بين المدافع والعدو ، وعقرب الساعة ، أما هو فقد انطلق
صوته يسأل من حوله :

– هل سمعتم آخر نكتة عن اليهود (ثم يبدأ فى سردها) : « كان

فيه واحد يهودى ٠٠ ، وينتهى من سردها فتنبسط الوجوه وتنفرج
الشفاه ٠٠ وتنطلق القهقهات ٠٠ من الصدور .
وأخيرا يسود الصمت ، حتى ليكاد المرء يسمع تردد أنفاسه ،
ويستمر السكون - سكون ما قبل العاصفة - لحظة ٠٠ ثم تهب
العاصفة .

حيا الله رجال المدفعية ، فهم رجال نمونجيون .
أى والله يا سيدى لقد كان كل عملهم نمونجيا لكأنى بهم فى صف
الصباح عندما كنا نمر عليهم بخيولنا فى منشية البكرى أمثلة للنشاط
والقوة المتدفقة وخفة الحركة لا تكاد تميزهم من فرط سرعة حركاتهم
٠٠ حتى لكأن القنابل وقد تناقلتها الأيدي تقفز وحدها الى ماسورة
المدفع ٠٠ حركة دائبة بلا همسة ولا كلمة .

والاصابات يا سيدى اصابات رائعة ٠٠ هل تصدق أن أول قذيفة
أطلقت أصابت احدى الدشم اصابة مباشرة ؟ كان كل الضرب فى
الصميم ، فما طاشت ضربة واحدة .

استمر الضرب ، والرجال السمر فى مكانهم كالأوتاد ، ما أصابهم
كلل ولا ملل ، ولا طرأ عليهم أقل تغيير ، اللهم الا تلك الطبقة اللامعة
من العرق التى كست وجوههم وأجسامهم ، وتكشيرة قاسية قد سرت
فى ملامحهم فأبدتهم كبائعى اللحم وتجار السعير !!

استمر الضرب مبرحا متواصلا ، لا هواده فيه ولا رفق ولا سكون
ولا هدوء ، لا تسمع الأذان سوى الدوى ولا تبصر الأعين سوى
الدخان المتصاعد ، ولا تشم الأنوف سوى رائحة البارود المعزوجة
بالأثرية ، وبين أوتة وأخرى نسمع أزيز طائراتنا تتجه الى العدو
تهديه بعض قذائفها .

استمر الضرب خمس ساعات متواصلة والعدو يصلى نيران
المدفعية والطائرات . وفى منتصف الساعة الثانية والنصف ، بدت

عليه بواذر اليأس ، وأخذت البيارق البيض تتصاعد من مواقعه
الواحد تلو الآخر ، تعلن التسليم •

لقد أخرج العدو بيارقه البيض ، ولم يكن لدينا كبير ثقة في
شرفه ، فأت الذي بقر بطون الحبالى وذبح الأولاد ، لا يكتر عليه أن
يرتكب أمثال تلك الخدع القذرة ، فيلوح بالتسليم حتى تكف عن
الضرب وتتقدم منه ، فيبدأ هو في ضربنا كأي نذل مخادع جبان •
أجل يا سيدي كنا نعلم أن هذا التسليم من جانبه قد يكون خدعة
قذرة ، ومع ذلك فلم نكن نملك سوى أن نكون شرفاء ، وأن تكف عن
ضرب عدو لوح لنا برايته البيضاء ، وأعلن اليأس والتسليم •

وهكذا – كأي رجال شرفاء – أوقفنا الضرب ، وتقدم إلى العدو
بعض ضباطنا في عربة من عربات الجيب ، ولكنهم لم يكادوا يقتربون
من مواقعه ويصلون إلى مرمى نيرانه حتى رأينا الراية البيضاء
تنزل ونيران الجبناء تتقاذف ، فاستدارت العربة عائدة بسرعة إلى
خطوطنا •

أى والله هذا هو ما حدث ، وماذا ينتظر أن يفعل الأندال سوى
ذلك ؟ ان من الخطأ أن تكون شرفاء مع الذين لا يفهمون معنى الشرف
•• الذين لم يكونوا في حياتهم قط شرفاء •• الذين يبيعون شرفهم
بدراهم معدودة !

وهبت الزوبعة ثانية ، أشد عصفاً مما كانت ، زوبعة عاتية لا تبقى
ولا تنر ، وعاد أسود المدفعية إلى قذف حممهم ، أسوداً غاضبة ثائرة
تود لو تركت مدافعها وتقدمت إلى الأندال المخادعين لتمزقهم أربا •
استمر الضرب حتى الخامسة ، وهنا حل دورنا إذ كان علينا أن
نتسلم العمل من الرجال الكواسر فنقوم بالهجوم مع المشاة ، ونقتحم
مواقع العدو ، ونطهرها منه ••• ونحتلها برجالنا •
وبدأت الموجة الأولى من عرباتنا المدرعة تفتح للتقدم يسترها

وابل من نيران المدفعية تمر من فوقها ، فتهبط على حصون العدو لتدكها دكا . ويتقدم من ورائها جنود المشاة ، ثابتى الخطى ، شديدي البأس ، قد نفرت عروقهم وبرزت عضلاتهم وهم يقبضون بشدة على بنادقهم وتجهمت وجوههم وكشروا عن انيابهم ، واختلط تراب المعركة بحرقهم المتصيب فزادت وجوههم سمرة فوق سمرة ، وبدأ كان فى عيونهم بعض تلك الحمم التى تخرج من اقواه المدافع .

وهكذا اخذنا نقترب من مواقع العدو ، الموجة تلو الموجة ، لا خلل فى التوقيت ، ولا نقص فى الخطط ، كل شىء نموذجى كامل .

وكنت اتقدم بعريتى فى منتصف احدى الموجات ، وقد تملكتنى النشوة ، وفاض بى الحماس . ان نيران العدو قد تستطيع أن تسقط منا بعض الأجساد ، ولكنها لن تستطيع أن توقف ذلك الايمان المتدفق والحماسة البالغة ، لقد عزمنا على أن نبيدهم ، ولا يد لنا من ذلك ، ولن يقف فى سبيلنا حائل .

وكفت المدفعية عن الضرب ، فلقد أصبحنا فى منطقة النيران ، وأصبحنا نواجه العدو وجها لوجه ، مصوبين اليه فوهات مدافعنا المركبة على العربات .

وزاد لهيب المعركة . وانطلقت مدافع العدو الرشاشة المستورة فى الدشم لتوزع علينا وابلا من طلقاتها تحاول ايقافنا عيئا .

-ووصلنا أخيرا . . . وقد تعالى زفير مشاتنا على دوى المدافع ، ويدا العدو يتهار ويلفظ آخر انفاسه ، ولم يعد يسمع من مواقعه الا طلقات متباعدة متناثرة كأنها حشرجة الموت :

ورفعت البيارق البيض مرة أخرى ، لم تكن خدعة هذه المرة ، فما عاد فى الأندال رمق يعينهم على الخداع ، وأخذت أقترب بعريتى رويدا رويدا ، عندما سمعت صوت طلقة تأتي من بعد . . . ثم سمعت

فحيجا يمر بي كأنه فحيح الأفاعى ، وأحسست بطسقة بسيطة فى
صدرى .

ومددت يدي أتحسس صدرى والعربة سائرة .. والقوات تتقدم
من حولنا . فأحسست بلزوجة ساخنة ، ورفعت أصبعي الى ناظرى
فلمحت آثار دماء .

لقد أصبت

ان الاصابة لا شك بسيطة .. لم تحدث بي اى تأثير .. فانا كما
أنا ، ما انتابنى ضعف ولا خور .. انى قوى كما أنا أقف على قدمي
وأصلب جسدى ، وانى أستطيع أن أقود سريتي حتى النهاية ،
ولقد أضحت النهاية قاب قوسين أو أدنى .

حلت النهاية بنصر حاسم لنا .. وأخذ العدو يستسلم زرافات
ووجدانا .. وقواتنا تطهر مخابئه ومواقعه ، كما تطهر الشقوق مما
بها من الحشرات والأفاعى .

★ ★ ★

انى أرقد الآن على الفراش . فقد نقلونى من العربة بعد أن
أحسست بضيق شديد ، وحملونى من أرض المعركة ، ولكن ليس قبل
أن أجنى ثمار النصر . وأرى بعيني علمنا الأخضر يرفرف فوق حصون
الصهيونيين .

لقد أصبت بجرح فى الكتف ، لا أظنه على شيء من الخطورة .
وان كنت أكره منه أن يرقدى هكذا طريح الفراش .. أجل انى أكره
أن أكون جريحا ..

قل لأصحابنا اننى سعيد .. سعيد بكل شيء .. وسعيد مهما
حدث لى ، ولو مت ، فانتى أموت سعيدا قرير النفس .

قل لصاحبتي تنتظر ولا تحزن لغيبتي .. بل تضحك وتبتسم ،

فقدنا سأعود اليها شخصا آخر قد كلال الفخار هامته ورفع النصر
رأسه ٠٠ قل لها اننى سأعود اليها ويملاً نفسى الفرح ٠٠ لأنه سيكون
لدى ما أستطيع أن أقصه على أولادنا عندما ننجب أولادا ٠٠ سيكون
لدى ما يملاً نفوسهم فخرا بأبيهم وبأوطانهم ٠٠ سأقص عليهم كل
ما فعلت ٠٠ ما فعلت أنا لا ما فعله القراعنة ٠ سأدرس لهم المعارك
التي خضتها لا المعارك التي خاضها الانجليز ٠ سأدرس لهم دبر سنيد
يدل العلمين وواترلو ٠

قل لمصر تقر عيننا ٠٠ لأنها لن تهون ٠٠ لن تهون وفى صدورنا
قلب يخفق وعرق ينبض ٠٠ قل لمصر تطمئن فليس فى الكون ما يذل
انفها ، ما دام لها من بنيتها درع يصد عنها الخطوب ويرد البلايا ٠
قل لمصر انها لن تضام ٠٠ ان فى أجسادنا ارواحا تتوق الى
التضحية وتتلطف على الفداء ٠

قل لمصر اننا لا نخشى الموت ٠٠ فكل فرد الى الفناء مصيره ٠٠
ان الفرد فان ٠٠ أما الأمم فباقية خالدة ٠٠ ما أعذب الموت الذى
يتيح لنا أن نكتب لها سطورا فى صفحات الخلود ٠

قل لمصر اننا نحمد الله ٠٠ لأن الله هيا لنا من الموت فرصة نرد
لها فيها بعض الجميل ٠٠ ونرفع رأسها بين الأمم ٠٠ لقد ميزنا عن
غيرنا ممن لم يعطوا فرصة الموت فى سبيلها ٠

قل لمصر انها لن تموت ٠٠ ان ارواحنا فى أكفنا ٠٠ واننا كرماء
٠٠ سنجد بها لكى تحيا ٠٠ ونذهب نحن لها فداء ٠
والسلام عليكم ورحمة الله ٠

المخلص (٠٠٠٠)

★ ★ ★

ولقد كان الفتى الأجد صادقاً فى قوله ، كريماً فى فعله ٠٠ اذ

جاد بروحه قبل أن تصلني رسالته .. لقد كان جرحه قاتلا فمات
لتحيا مصر .. كيف أبلغ رسالته لصاحبه ؟ ! وماذا أقول لمصر ؟
أما صاحبه فاسأل الله أن يعينها على فقده وأن يهب لها من لدنه
رحمة ويهييء لها من أمرها رشداً .
أما مصر فلقد بلغتها ما قال .
انى ألح فى عينيها دمة تترقرق .. لست أدري ، أدمعة حزن ،
أم دمة فرح .. وأسمع همسات ترسلها اليه مع الريح : « شكرا » .

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

رقم الايداع ٧٤٢١ / ٨٦